مطبوعات المجمع العلمي العراقي

تاريخ الإمارة الأفراسيابية

أو

حلقة مفقودة من تاريخ البصرة

بقلم

الأستاذ محمد الخال

قاضي السليمانية

والعضو المراسل في المجمع العلمي العراقي

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على رسول الله

محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

عثرت في مكتبتي على كتاب قيم من نفائس الكتب الخطية ، ونوادر المخطوطات العربية ، يتضمن مائتين واحدى وستين صفحة من القَطع الكبير ، أعتقد أنه لم يطلع عليه أحد من الباحثين ولا نظير له في دور الكتب والمتاحف المشهورة ، ونادر الوجود ، وهو كتاب : (السيرة المرضية ، في شرح الفرضية) تأليف العالم الباهر والشاعر العبقري الماهر ، العلّامة (عبد علي) بن ناصر الشهير بابن رحمة الحويزي . والكتاب في شرح بيتين من أبيات أمير البصرة السيد (علي پاشا) بن (أفرا سياب پاشا) بن (أحمد بك) ابن (حسين چلبي) بن (فرحشاد) بن (أفراسياب) بن (سنادستت) التركي السلجوقي التي نظمها في وزن المواليا أعني المواليا الفرضية ، وبهذه المناسبة كتب المؤلف عبد علي الحوادث التأريخية والوقائع الجارية في ولاية البصرة التي شاهدها بنفسه في عهد الأمير علي باشا الذي دام عشرين سنة أي من سنة [١٠٣٣ هـ] إلى سنة [١٠٥٣ هـ] ليكون كالتأريخ لإمارته ، وهذا الكتاب يملأ فراغا مهماً من تأريخ البصرة التي هي أهم جزء من أجزاء العراق ، حيث يتبين منه سعة الولاية ، وترامي أطرافها ، كما أنه يتضح منه كثير من نواحي حياة عبد علي ومؤلفاته المجهولة وقصائده الرنّانة ، وأشعاره البليغة ، التي جادت بها قريحته الفيّاضة في مناسبات شتّى ، ولم ينشر منها شيء في ديوانه . والحق أن الكتاب

حلقة مفقودة من تأريخ البصرة جديرة بالاهتمام من وجوه عدة .

لقد رأى المجمع العلمي العراقي أن ينشر القسم المتعلق بتأريخ البصرة وأميرها على صفحات مجلته الزاهرة ، وها أنا ذا أستخرج من الكتاب نصوص المواضيع التأريخية بكل دقة وأمانة ليكون القراء الكرام على علم بهذه الحلقة المفقودة .

يقول المؤلف : « ... ووقايع مولانا صاحب السعادة — بلّغه الله مراده — التي شاهدنا أكثرها ما حمله عليها ، ولا ساقه اليها ، إلّا سر العرض ، بين ملوك الأرض ، وإذ أفضى بنا الكلام الى هنا فلنذكر شيئاً من ذلك يكون كالتأريخ لدولته المقرونة ببقاء الأبد ، ويكون بها هذا المؤلف قد ظفر بما لم يظفر به أحد ، فنقول : وبالله التوفيق : كان جلوسه — حفظه الله — في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين بعد الألف وذلك أنه لما انتقل والده — أنار الله برهانه وأسكنه فراديس جنانه — من دار الأحزان ، الى جوار الملك المنان ، ودخول الجنان ، وملاقاة رضوان ، والحور الحسان ، في التأريخ المذكور ، قام بعده مقام الشبل بعد الأسد ، والبدر بعد الشمس ، يسدد ما يظن اختلاله ، ويقيم ما لا يرجى اعتداله ، بين بِشر يبديه ، وبُسر يسديه ، وحال الناس من في ذلك مُرَدّ بين أمرين ، ومقلّب بين نقيضين ، جمعوا بين الفرح بسلطنته ، والحزن لفقد والده ، فكأن أبا نواس نظر الى تلك الأيام بقوله :

جرت جوارٍ بسعدٍ ونحسنٍ   فالناس في مأتم وفي عُرس
يُضحكها القائم الأمين ويبـ   ـكيها وفاة الرشيد بالأمس

فسُرّت الأولياء وأظهرت ، وحزنت الأعداء وكتمت . وما كان بشره الذي أبداه ، وجوده الذي أسداه ، للناس حتى بردت قلوبهم بعد الالتهاب ، وسكنت أنفسهم بعد الاضطراب ، إلّا فرحاً منه بنيل الملك والتمكن من سرير العز الذي يسأله الأنبياء ، ويتمناه الأولياء ، قال الله تعالى — حكاية عن (سليمان) — : ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد

من بعدي) . . . . ولقد قلت فيه :

مَلِكٌ يقيك الفقرَ بشرُ جبينه ... عوذاً ويجلي النحسَ عنك بأسعدِ

حامي الحقيقة ليس تظمأ بيضه ... إلا لرشف دم الكمّي الأصيد

أسدٌ إذا عبثَ القذى بعيونه ... شُفيتْ من النقع المثار بأثمد

يهوى السيوف فما تراه مشبباً ... إلا بفتك ظُبي عيون الخرَّدِ

ويهزّه هزَّ القدود لأنها ... في الميل تُلحق بالقنا المتأوّد

آيات سؤدَده العزائم في العُلى ... فاذا تُلين حَنَثْتَ إن لم تسجد

ثم لم تنسلخ عاشوراء مفتتح السنة الرابعة والثلاثين حتى نزلت عساكر الأتراك ورئيسهم وقائدهم يومئذ (إمام قُلي بك) بن (بك وردى) المكّنى بـ (أبي الروس على القبان) ، ووصول الخان الأعظم إمام قلي خان بن الله وردى خان الى (الدورق) في جموع تعجز الحاسبين عن حصرها ، وكتائب تذهل العيون في إبصارها عن بصرها ، وذلك ان الشاه (عباس الصفوي) كما ملك بغداد في السنة السابقة رام دخول والده (افراسياب باشا) رحمه الله في طاعته ، وانقياده لأوامره ونواهيه ، فارسل اليه خلعاً فاخرة والقاباً معظمة يستميله الى الالتئام معه .

فلم يجد رسوله الا الطرد قبل اللقا ، والمبادرة بالجفا ، قبل الحلول في تلك الأرجاء فشق ذلك عليه ، وعظم الأمر لديه ، فأمر الخان المذكور بالمسير ، الى البصرة ـ بالعدد الكثير ، والجم الغفير من الأتراك ، فصادف وصولهم وفاته ، رحمه الله وقيام صاحب السعادة والنصر مقامه ، فصف للقائهم جيوشه من الخيل والرجال ، وشحن السفن الهندية والمقنّهات المخترعة التي لم يسبق المتقدمون الى ابتكارها بكماة الرجال ، وصناديد الابطال ، وخرج من البصرة في اليوم المخبر به من السنة المذكورة الى الموضع المعروف بـ (بُكردلان) [1]

(١) بالباء الموحدة المضمومة والكاف العجمية والراء والدال المهملتين وبعده لام والف ونون وهي كلمة تركية معناها بالعربية مأزق الخاصرة ، وذلك انه رمى منه بمدفع غراب اي سفينة هندية فمزق خاصرتها فسمي بذلك لذلك . (منه)

وكنت معه في هـذا السفر ، الكافل بالظفر ، ودفـت عساكر البحر الى (القبان)[1] ومصادفة الأقران ، وأقام في الموضع المذكور بعساكر البر لينظر في أمور من قدمنا ذكرهم أعني الأعداء المنافقين ، فأقطع بعضهم إقطاعات لم تكن له من قبل واقامه في منزله ، واستصحب بعضهم معه يلاطفه ويسلّيه ، ويعده الخير ويمنّيه ، وكان ممن تخلف (عبدالله ابن مانع) و (نعمة الله بن عليان) ، وسيأتي ذكرهم مفصلا .

ومن المستصحبين (عيسى الحويشي [2]) والأمير (ناصر الدين الزبيدي [3]) وركب من (بُكردلان) في اليوم ... حتى نزل الموضع المعروف (بالدحيمي) فورد عليـه الخبر من ابن خاله الأمير (ابراهيم بك) بن عبد الرحيم أمير الحفار يومئذ ان الاتراك انتهزوا فرصة ، واغتنموا غفلة ، ودهموا مَن قِبَلهم مِن العساكر المنصورة وقيدوا السيف فيهم وقتل خلق كثير ، وأمر القلعة مبهم فمنهم من قال أخذت ، ومنهم من قال سلمت ، فامر الرسول ان يكتم هذا الخبر وأظهر لمن سأله عنه أن الأمير المذكور يستدعيه الى النزول بساحته ، والى المرور بناحيته ، ليقوم بالضيافة ويظهر ما يَشرّفه من الخدمة ، فلم يكتم مثل هذه الأسرار ، وهل تخفي الشمس في رائعة النهار ؟ ، فلما اصبح أمر الأمير الكبير خليل بك ابن احمد الچلبي ختن مولانا على احدى كرائمه بالإعداد الى القبان ، وان يركب من عزمه جواداً غير متكل على فرس أو حصان ، وان يسبق في عـدة من ذوي النجدة والشجاعة ويدخل القلعة بنفسه ومن معه إن رآها قد سلمت ، وإلا انكفأ الى المعسكر سريعاً إن أخذت ، فاخذ بالسير مسرعاً وركب ـ سلمه الله ـ خلفه يقتفي أثره ، فرجع رسول الأمير المذكور بالبشارة بسلامة القلعة وضبطها بيد أوليائه . وحفظ الله اياها من ايدي أعدائه ،

---

(١) اسم موضع .

(٢) الحويشي : نسبة الى حويش قرية من قرى البصرة . (منه) .

(٣) بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وياء مثناة من تحت ودال مهملة ـ قبيلة تسكن (الرساتيق) نسب اليها . (منه) .

فأخذ على طريق المنيثر إختصاراً للطريق عادلا عن المرور بالحفار ، لضيق الوقت عن الانتظار ، فتواترت اليه الرسل بالبشائر بدخول الأمير المذكور الى القلعة وضبطها وإحكامها فنزل ما بين المنيثر والقبان في أرض (النيماو [1]) فنزلت الأوامر ورؤساء العساكر منازلها ، وحلت صناديد الابطال في محالها ، وأقام يومه يدبر أمر القتال ، وينظر أوائل الحال ، وتوالى المال ، وبث الجواسيس لاستخبار امور العدو القريب والبعيد ، فبلغه الخبر ان الخان الأعظم في الدورق يخرج الى الصيد على جاري عادته مع جمع غفير من خواصه ومقربي خدمته ، فأخذ رأيه الذي عوده النظر في الأمور البعيدة في ان يجهز اليه جيشاً كثيفاً وعسكراً كبيراً يأخذه من وراء عساكره المتقدمة عليه ، ويشنّ عليه غارة تذهله عن معرفة يديه من رجليه ، فانتخب من حماة رجاله ، وكماة أبطاله ، قوماً لو قذف بهم البحر لسكنت امواجه ، ولو رمى بهم يذبلَ أو رضوى لهدت أبراجه ، رجال يهشون الى القِراع هشاشة الأطفال للرضاع ، ويرتاحون للكفاح ، ارتياح العشاق للملاح :

آساد موت مُخدِراتٌ ما لها   إلا الصوارمَ والقنا آجام

تخِذوا الحديد عن الحديد معاقلا   سكّانها الأرواح والاجسام

فلم يتم هذا الرأي حتى بلغه الخبر ، ففقد الصيد منه العين والأثر ، وامتنع من الركوب إلى متصيداته ، والركون الى متنزّهاته ، واعتقل نياق السرور في معتقله ، وأقام قيام الجيش في منزله ، فلما كان في اليوم ... ركب من الأتراك عساكر كالسيل المنحدر أو الجراد المنتشر ، قد غصت الأرض ببوارق أسنتهم وصوارمهم ، وأشرقت البيداء بلمعان دروعهم ومغافرهم ، ومروا من وراء الشط بحيث تراهم العساكر المنصورة ، والجحافل التي هي بذمام الله مخفورة ، فشمرت خُنْزُوانَتُهُ ، وأنفت شيمته من إمهالهم الى الرجوع الى

(١) بالنون والياء المثناة من تحت والف وواو فارسية ، معربة اصلها (نيم آو) بمعنى منتصف الماء ، والأمر كذلك ، فانها في منتصف الشط ما بين (المنيثر) و (القبان) . (منه) .

معسكرهم آمنين ، والقفول الى مضاربهم غير مذعورين، فأمر رجاله بالعبور إليهم ، والوصول اليهم ، فعبرت رجال كأن الأمواج ابناؤهم، والبحار آباؤهم ، كأنهم التنانين والتماسيح واستجنبوا جنائبهم فكأنها خيل البحر ، لا خيل البر ، قد امتطوا مطايا من أُدُم يقطعون بها جواري المياه ، واستجنبوا الجنائب فكلٌ فرسُه وراه . فعبروا ، وركبوا، وركضوا ، حاملين حملة منكرة يهتز لها شناخيب[1] الجبال ، فما حال الرجال ؟ فانهزم الأعداء من بين ايديهم لا يلوي أحد منهم على آخر يدق بعضهم بعضاً ، لا يعرفون سماءاً ولا أرضاً ، يدفع الثاني الأول فيطرحه ، ويصدم الثالث الثاني فيبطحه ، فلما فصل الليل مسافة أبصارهم وصرفهم الى استقرار أفكارهم ، أمرهم بالمبيت في طرف العدو وأيدهم من رماة السهام والبنادق بجمع كثيف ، ورهط منيف ، وسمعت منه ـ سلمه الله ـ يقول : أطمع الأعداء في لقائنا اليوم الثاني قلةُ ما شاهدوا من العسكر وأطمع العسكرَ فيهم خَوَرُهم وجبنهم مع كثرتهم فلما أصبحوا أردفهم بمن عنده من الأجناد ، وضراغم تلك البلاد ، فلما أخذت الشمس في الارتفاع لم يشعروا إلا والارض قد ماجت ببحور الدروع والمناصل ، وغصت بجبال الكتائب والجحافل ، وأقبلت الأتراك بأسرها قد ملأت الخافقين بالسلاح ، متداعين الى التصادم والكفاح ، لا يقع البصر إلا على فرس صاهل ، أو فارس جائل ، أو بيضة ساطعة أو حربة لامعة ، فتهافتت فرسان الصدام ، وملوك ديار النجدة والاعتزام ، مستصرخين بعضهم بعضاً ، يبكي كلٌ في وجه صاحبه غيرة ومسابقة الى بذل النفوس ، والسماح بالرؤوس ذباً عما يوجب وصمة النقص من ذل الانكسار وشناعة العار ، يتخيل كل منهم استيلاء هذه الفرقة التي تهلك النسل والحرث ، يقتلون الرجال ويستبيحون العيال ، ولا يفرقون فيهم بين حرام وحلال ، ودنا الفريقان بعضهم من بعض ضرباً بالسيوف البواتك ، وطعناً بالرماح الفواتك ، ورضّاً للهامات تحت النزائك ، وظلت رحى الحرب تعركهم بثقالها ،

(١) جمع شنخاب رأس الجبل وأعلاه .

وتـدور عليهم بأثقالها ، وتكاثرت الأتراك حتى كادت الدائرة أن تكون لهم ، ومولانا ـ سلمه الله ـ ينظر اليهم والشط حائل بينه وبينهم ، فلما أحسّ منهم الوهن صرخ بمن معه من خواصه المتخلفين عنده من الذين أعدهم لتفليق الهام ، وإلحام الصدام ، وأمرهم بالعبور ، واستجنب هو بنفسه حصانه المشهور ، بغزالان الذي قلت فيه عند قدومه من الأحساء :

أتانا الهنا لمّا أتانا غَزالانُ حصان اذا شافوه أهل الغزا لانوا

وعبر الشط . فلما نظرت رجاله إلى القائه بنفسه لاسعادهم، وإقدامه بروحه إلى إمدادهم ، حملوا متنادين بالشعار الذي أعدوه في المضايق ، وركضوا الركضة التي عُوّدوها لتفليق هامات الفيالق ، متراكضين الى لقاء الموت ، متسارعين إلى النصر أو الفوت .

متسـابقين إلى الحمام كأنّما يتسابقون إلى لقاء حسان

فتداعت الزحوف ، وتخالطت الصفوف ، وخطبت على منابر الرقاب فصحاء السيوف ، وثارت عجاجة أخذت الأرواح من الأشباح ، واذهلت النفوس عن الارواح ، ونثرت الرؤوس بأكف الصفاح ، وعطلت الرجال من وقع السلاح ، وظلت ألسن السيوف تروى حديث النفوس ، وأيدي الخيل تلعب بأُكَر الرؤوس ، ترد الجياد من القتلى على جبل ، ومن دمائهم يخضن في وحل ، ومن جماجمهم يصعدن في نشز ، ومن ذوائبهم يقمصن في شكل ، فلم يلبث أن أسفر قتامها عن مساقط أبدان تحت ابدان ، واجسام فوق هام . فانـكشف فلّهم الذى أفلتتهم الصوارم ، واخطأتهم أنياب الضياغم ، عن مضاربهم ، وانزاحوا عن مرابضهم ، ورجعت عنهم الخيـل المنصورة ، بالرجال المعروفـة المشهورة ، يتلاعبون تحت القتام ، تلاعب النجوم تحت الغمام ، بل الاشبال في الآجام ، قد أسكرتهم خمور النصر ، وأمالتهم كالغصون أرواح الظفر ، فيالك من يوم ثلجت فيه القلوب بعد الاضطرام ، وسكنت النفوس بعد الاضطراب والاصطدام ، وعاد مولانا بمن معه ظافراً

منصوراً ، وعزم على أن يركب في اليوم الآخر بجميع ما يحويه المعسكر هاجماً عليهم الى مستقرهم الذي هم فيه ، وموضعهم الذي عرجوا عليه ، وان يلقى عليهم الحرب في طرفي البر والبحر ، ملتقياً إياهم بالصدر ، الذي تضيق الأرض عن رحبه ، والعزم الذي تتباعد الصوارم عن قربه ، لجمع الرجال ، وفرق الاسلحة والاموال ، وذكر لي (حفظه الله) إنه بينما كان مشتغلاً فى ذلك سمع أصوات المدافع والاتفاق ، قـــد طبقت الآفاق ، فأصغى هو والحاضرون الى ذلك الهول ، وظن الناس ظناً متاخم الاعتقاد أن القلعة قد افتتحت ، وان الامم التي فيها قد قتلت ، فبعث جاسوساً يأتي بالخبر ، وحلول هذا الأثر ، فأتاهم بشيراً بالنصر والظفر ، وان العـــدو قد انكسر ، وقد ترك الخيام ، والميرة والطعام ، والخيل والانعام ، بل الجواري المنشآت في الجبال كالاعلام ، فغنم ما في معسكرهم وأقام مدة يصلح ما اختلّ من أمور تلك الأطراف ، وينعم بالتلافي لما حصل فيه الإتلاف ، وكرّ راجعاً يسوقه النصر ، ويقدمه الظفر إلى مستقر عزه ، ومستند مجده ، وكان دخوله بالعساكر المنصورة ، في اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور من السنة المذكورة .

وفي هذه السنة المذكورة نزل القلعة المعروفة (بالقرنة) لمصادمة الخان المقدم ذكره وظهر له ما كان قد أضمره بعض اعداء الدولة كالحويشي وناصر الدين وابن عليان ، وقد قدمنا انه — سلمه الله — قد استصحب معه عيسى الحويشي وناصر الدين الزبيدي في سفر القبان ، وكانا قد اغتنما منه هـذه الفرصة واشتغاله بتدبير القلاع المشرفية من البصرة ، فتعلل ناصر الدين الزبيدي وكر راجعاً الى القرنة وهو يومئذ أميرها وانكفأ الحويشي الى نهر عنتر مطمعاً انه يأتي ببقية عسكره ويلحق بالقبان ، وكانا قد جعلا كلاميهما واحداً في امر العصيان ، فلما رجع الخان الى الحويزة لحرب السيد منصور خان بن السيد مطلب الحيدري وظفر باخراجه من الحويزة ونصب ابن أخيه السيد محمد خان بن السيد مبارك في موضعه ، تواترت رسل اهل الجزائر الى الخان يستقدمونه الى قلاع شط العرب ، ومن جملة

من أرسل اليه واطمعه في ذلك محمد بن حسن الديري صاحب قلعة السويب فسمع بذلك صاحب السعادة أيده الله فركب بعساكر البر والبحر وجعل معسكرد في خارج القرنة ، فلما بلغ الخبرُ أهل الجزائر وأمراءَها لم يسعهم التخلف عن خدمته ، فجاؤا بأجمعهم ، ومنهم ابن عليان والحويشي ، فلما سمع الخان بوصوله الى القرنة واستقراره بجميع عساكره فيها ، لم يجد بداً من فسخ العزيمة عن الوصول ، والتصميم على القفول ، فكرّ راجعاً الى بلاده . وفيها استقبل مولانا الباشا حضرة السيد منصور خان ، بعد خروجه من بلاده الى النهروان .

ذكر خروج منصور خان ولقاء مولانا الباشا اياه

قد ذكرنا أن الخان عطف من حرب القبان الى اطراف الحويزة ، وكان السيد محمد خان ابن السيد مبارك خان قد استنجده لمحاربة السيد منصور خان ، فلما سمع منصور خان بقدوم الترك ترك البلاد لابن أخيه وخرج الى النهروان ، فركب مولانا الباشا لاستقباله ، وكنت يومئذ معه ، فَغصّت الارض والفضاء بالخيل والرجال ، وشرقت دجلة ـ بالشرع والادقال[1] ، واتفق ذلك المسير ، والارض قد أخذت زخرفها وآزّيّنت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فَوَرَّدَتْ فيها خدود الشقائق ، وفرشت الأزهار فيها النمارق ، ورنت عيون النرجس الى عجيب صنع ربها ، وأومت أصابع المنثور الى جوانب وهادها وكثبها ، فكأنه نظر اليها بقوله ـ سلمه الله ـ .

طاف الربيع بأكناف البلاد وساد
وحل بالمسك من طيب الورود كساد
والعشب اضحى لأطراف الاراضي ساد
حتى غدا منه للنائم غطا ووساد

(١) جمع دقل . خشبة طويلة تقام ثابتة في وسط السفينة يمد عليها الشراع .

نعم : —

ما الدهر الا الربيع المستنير اذا	جاء الربيع أتاك النّور والنَّور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة	والنبت فيروزج والماء بلّوْرُ
من شم طيب رياحين الربيع يقل	لا المسكُ مسكٌ ولا الكافور كافورُ

فالتقيا في موضع في غربي القلعة المسماة بالزكبة ، ونزلا وأقام له ولمن معه الضيافة والنُزُل ، واعطاه من الخيل والخلع والنقود والعروض شيئاً كثيراً ، وفي هذه السنة المذكورة انهزم الخواجة عبد الواحد من البصرة الى الحويشي .

ذكر السبب في انهزام الخواجة عبد الواحد الى الحويشي وما آل اليه أمرهما

كان هذا الرجل قبل اتصاله بخدمة هذه الإمارة وزيراً لاسيد مبارك خان الحيدري متصرفاً في أموره ، فلما مات وجلس ابن أخيه السيد راشد خان في مكانه قبض على الوزير المذكور وانتهب داره ، ثم أفلت من الحبس لأسباب يطول شرحها وقدم على افراسياب باشا ، فنصبه في منصبه ، وسلم اليه أموره ، وأقره مولانا بعد وفاة والده على ما كان عليه عند والده ، وكان يتولى تدبير أمور الإمارة من مخاطبات الاصدقاء والأعداء ، وكان محسوداً فيما بين الناس لموافقة الحكومة إياه ، وافراط توجه مولاه ، وكان يُسِرّ الى صاحب السعادة ما يُلقى الوحشةَ بينه وبين أختانه على كرائمه مثل علي آغا المشهور بابن الهزيلي وجمعه آغا ، ويسعى بما يثير الفتنة بينه وبين غلمانه ، لكنه لم يصادف قبولاً ، فعادت معاريض كلامه فضولاً ، فاتفق يوماً انه أتى على جارى عادته ، فمنعه البواب من الدخول ، وكان حينئذ على آغا المقدم ذكره جالساً عند صاحب السعادة ، فرجع الخواجة المذكور وهو لايشك في افشاء ما اسرّ الى الباشا ، فلما علم الباشا بوصوله ورجوعه استدعاه فلم يرجع ، وأقام في بيته أياماً ، ثم ارسل اليه الباشا الأمير خليل بك يدعوه ويستميله ويعتذر اليه ، ان الهفوة التي صدرت من البواب ، لا تستوجب مثل هذا الاجتناب ، فلم يزد إلا الاصرار ،

ولم يجب بتوبة ولا استغفار ، وأقام في منزله مجانباً أمور الديوان ، والدخول في أمور السلطان ، هذا واقطاعاته دارّة عليه ، ومقرراته واصلة اليه ، فلم يلبث على ذلك حتى أوحشه بعض من كان يأنس به وخوّفه من القبض عليه ، وانتهاب ما في يديه ، ولم يزل ذلك ينمو في قلبه ويزداد ، حتى لم يجد له ما يثلج به الفؤاد ، سوى الهزيمة تحت أردية الليل ، والركوب في سفينةٍ حذراً من لحوق الخيل ، فقدم على الحويشي ، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة المذكورة .

ذكر وقعة الحويشي وهو عيسى بن محمد الحويشي

كان هذا الرجل في مفتتح امره ، وبدوّ حاله ، من أواسط الناس بل ممن دون الأواسط فلزم باب الديوان ، ورقت به أحوال الزمان ، الى أن شملته عناية مولانا سلمه الله وأبيه من قبله ، غير انه بلغ في زمان صاحب السعادة ـ بلغه الله مراده ـ الى ان استقل بأمور الطرف الصالح من مملكة الجزائر ، ودرّت عليه أخلاف الدنيا ورضع ثدي السعادة، وكثرت أمواله وأموال أخيه الأمير (علي الحويشي) ، وحشدوا خلقاً كثيراً من الرجال ، وكماة الابطال ، وكان ممن قدمنا ذكرهم من الأعداء المكاتمين ، والجماعة المنافقين ، فلما رأى مضى مولانا دام عزه الى حرب (القبان) في الكلام المقدم ذكره ، كان في جملة العسكر مع يسير من أتباعه فاستأذن في الانصراف الى الجزائر ليهيء عسكره بالكلية ، ويرجع الى الخدمة ، فاغتنم الفرصة وبعث الى من كان معه في طريقته الرّدية ، وعقيدته الفاسدة ، من الأعيان في البصرة يستنصحهم في الخروج عن الطاعة ، وركوب جادة الشناعة وخسارة البضاعة ، فأجابوه بقول الشاعر :

لقد عرضت فرصة في العدو فلا تبدأ الرأيَ إلا بها

فضرب بطبل العصيان ، وركب متن العدوان ، وحبس الأمير زنبور وهو ضيف عنده

قد انحدر من مدينته الى البصرة ، فركب مولانا سلمه الله في خواصه من الأعيان أعني الأمير عبد العزيز خال ولده السعيد الرشيد حسين بك وجمعه آغاختنه على كريمته وعمر آغا ابن حبيب صاحبه القديم وعمر آغا القبطان وباقي المتجندة من أهل البصرة والغرباء الذين استخلصهم لنفسه ، ذلك في شهر ربيع الثاني ، وكان من جملة الأمراء الذين أظهروا الفساد ، وطغوا في البلاد ، من المتفقين مع الحويشي ناصر بن ناصر الدين الزبيدي ، وهو من الذين شملتهم عنايته وعناية أبيه ، ورفعتهم من حضيض الذل الى اوج العز فشحن قلعته المسماة (بالقرنة) قديما و (بالعلية) الآن بالرجال والأسلحة ، وحشد من الجزائر فيها خلقاً كثيراً ، فلما بلغ هذا الخبر مولانا — دام مجده — أناخ بكلكله عليه ، وتوجه بالعساكر المنصورة اليه . وأشار الأمير عبد الله بن مانع أمير البوادي بالنزول على الحويشي وقلعته المسماة بنهر (عنتر) ، فلم يلتفت اليه ، ولم يعول عليه ، لعلمه انه من المنافقين المكاتمين ، وكان في القرية المسماة (نهر يرعه) قريباً من القرنة جماعة من مخلصي مولانا ، فعبر عليهم عسكر ابن ناصر الدين لينهبوهم ، وكان ذلك بمرأى من الباشا — مد ظله — ومسمع ، فأمر أمراء المقدمات والسفن أن يصلوا الى إمدادهم ، ويجهدوا في إسعادهم ، فأخذتهم الريح في شط القرنة فحالوا بين العسكر الخارجين للغارة والنهب وبين قلعتهم فانكفؤوا راجعين وكرّوا قافلين ، فأخذهم أطراف العسكر وخرجت الرجال الذين في السفن إلي البرية وأحاطوا بالقلعة من الطرف الغربي ، فساء صباح المنذرين وابتدروا اليهم فكانوا لهم لقمة جائع ، حتى تهافتوا من أعلى القلعة ، تهافت الفراش على المصباح ، وتطاير الهباء تذروه الرياح ، منادين الأمان الأمان ، وحاق بالذين كفروا مكرهم ، وأقبل والي القلعة ومَن معه من الأعيان ، المتبعين له بغيراحسان ، متضرعين من سوء أعمالهم متنصلين عن قبيح أفعالهم ، فشملتهم عنايته ، وعمّتهم رأفته ، فكأنما خاطبه المتنبي بقوله فأجابه الى ما سأل ، وفعل الصفح الذي فعل :

تفضّـلْ أيّهـا المولى عليهم فان الرفق في الجاني عتاب

ثم أمر بتقويض الخيام ، وتبادر الـكماة الأعلام ، الى فتح نهر عنتر وذلك في الشهر المذكور فنزلت العساكر المؤيدة ، وصادف نزولها خروج الحويشـي وعسـكره لانتهاب الشرش وبعض الرعية بالقرب من ذلك المـكان ، فتطاير اليهم بعض الشبان للقتال ، وأحداث النزال ، والتحمت الحرب وتكاثف الجيشان من الطرفين . هذا ، وهو — سلمه الله — لم ينزل عن جواده بعد ، وحكى لي أن ذلك اليوم مما لم يمرّ على أحد ممن سكن البصرة السماع بمثله ، أو المشاهدة لشبهه ، وزحف عسكر الحويشي الى مقابلهم من الأجناد حتى ضايقوهم والجؤوهم الى قريب من الخيل وكان بندق الأعداء يمر على رأسه ـ سلمه الله ـ وهو لايتضعضع عن مكانه .

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنّك في جفن الردى وهـو نائم

تمر بك الأبطال كَلْمى هزيمـة ووجهك وضاح وثغرك باسـم

وأشار عليه بعض أرباب الأفكار القصيرة ، والهمم الحقيرة ، أن يتأخر عن ذلك الموقف بحيث لا يصل اليه سهام الأتفاق ، فلم يعبأ بقوله ترفعاً منه عن أن يقال قد زلزله الحويشي عن مرسى قدمه ، وأغاثة خدمه .

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من دون أخمصك الحشر

وكأن أبا فراس قد تكلم على لسانه فقال :

ولمـا لم أجـد إلا فراراً أشـدّ من المنيـة أو حماما

حملتُ على ورود الموت نفسي وقلتُ لصحبتي موتوا كراما

واستمر القتال والجدال بين الفريقين من الصباح الى الظهر وذلك في يوم كيوم الشَّنْفَرى حيث يقول :

ويوم من الشِعرى يذوبُ لعابُه أفاعيـه في رمضائه يتملمـل

فأهبّ الله رياح نصره ، وأمطر سحاب معونته ، على عساكر مولانا ، فحملوا عليهم حملة منكرة متنادين بكلهم ، صارخين بشعارهم ، فقتلوا منهم مقتلة كبيرة ، ففقد الحويشي بها ماله ورجاله وقتل بها أكثر أبطاله ، فانهزم ببقية عسكره الفلّ الذين أفلتتهم السيوف ، وأخطأتهم الحتوف ، الى قلعته مكسور الباس ، مخزياً بين النـاس ، نادمـاً حيث لا ينفع الندم ، تعصيه اليد ولا تطيعه القـــدم ، وأقام على ذلك حتى قبض عليه وعلى أخيه وعلى الخواجة عبد الواحد ومن معه .

ذكر السبب في القبض عليه

كان الأمير نعمة الله بن محمد بن السلطان أحد الأمراء من ذوي البيوت ، وكان قد شملته عناية مولانا الى أن جعله أعز كل رفيق ، بل في مرتبة الأخ الشقيق ، بعد أن غيرت أحواله ، وساءت معيشته فالجأه الى نفسه ، وأمّره في بلاد أبيه ، واستقام حاله حتى أطاعته أهل تلك الأطراف الذين لم يطيعوا أباه من قبله ، وكان فيما بينه وبين الحويشي عقد أخوة ويمين على الاتفاق ، في الوفاق والشقاق ، وكان مولانا قبـل الخروج من البصرة قـد أراد من الأمير نعمة الله أن يحتـال في وجه تمكينـه مـن القبض على الحويشي وهو عالم باتفاقهما لـكن آراءه مقرونة باليمن ، وَبَذَلَ له رغائب الأموال فاستحلفه الأمير نعمة الله بن عليان على قتـله اذا هو قبض عليه ، وأتى به إليـه ، فأجابه الى ذلك وكان الأمير المذكور ممن يروم العصيان في الجزائر ، ويعتقد أن الحويشي اذا لم يقم بامره ويوافقه على سعيه لم يتم له حال ، بل ربما قام الحويشي بحربه دون غيره من الرجال ، فاراد ذهابه حتى لا يبقى في تلك الديار من يمكنه المقاومة له اذا خرج على الطاعة ، فلما انصرف الحويشي الى قلعته مكسوراً ، ورجع العسكر الى المعسكر منصوراً ، تمنّى له أن يستنجد بالأمير نعمـة الله ، ورأى ان لم يصل بنفسه اليه لم يذكر العهد القديم والود السابق فركب اليه وهو يومئذ في بلده المسـمى بنهر صالح ، فلما استقر مع قليل من اصحابه قبض عليه

وارسل من يبشر مولانا بفناء اضداده ، وكبت حساده . ولم اتشرف بملازمته في ذلك السفر ، بل سمعت منه ـ سلمه الله ـ يقول لي كنا جلوساً عتمة فسمعنا صوت شخص ينادي من وراء الشط عبّروني فان عندي بشارة ، فامر عمر آغا القبطان من اتى به فكانت هذه البشارة ، ولما وصل خبر القبض عليه الى اصحابه ـ واخوه الأمير علي وخواجه عبد الواحد يومئذ بالقلعة المسماة بالرحمانية ـ قصمت ظهورهم ، واستعجمت عليهم أمورهم ، وزحف اليهم العسكر فأخذوا أخذاً وبيلاً ، وقتلوا الثلاثة ، وأقام الله ما أرادوا اعوجاجه ، فسدّ منه لجاجة ، وهو ولي الاعانة والتوفيق ، وللمتكلة عليه خير رفيق ، ثم دخلت السنة الخامسة والثلاثون وكان فيها حرب ابن مانع وغدره بالأميرين مراد بك وخليل بك ختني الباشا ـ مد ظله ـ .

ذكر حرب بن مانع وغدره

هو عبد بن مانع المنتفقي أمير بادية البصرة وتوابعها . كنا قد قدمنا أنه من جملة الذين كتموا العداوة ، واظهروا الطاعة ، ترقباً للفرصة ، وملاحظة للغِرّة ، والأمير نعمة الله بن عليان أمير الجزائر ممن يوافقه على ذلك ، ويسلك معه تلك المسالك ، فعنّ لهما رأي نزع الطاعة ، وإظهار الشناعة ، فدَغَرَ ـ أي هجم ـ ابن عليان على القلعة المعروفة بالمدنية والقلعة الموسومة بالفتحية ، وكان واليها يومئذ الأمير زنبور أحد أعيان الإمارة ، وبث جيوشه عليها ، واشعل نار الحرب بينهما ، فورد الخبر على مولانا ـ دام عزه ـ وكنت حينئذ في خدمته في بيت عبد القادر افندي ختن الباشا المرحوم على كريمته في ضيافة اعدّها له ولأعيان مملكته ، فلما سمع بهذا الخبر قال موالياً بديهةً ، وهي من الكلام الذي يتضمن الكشف فانه ذكر فيها ما لم يكن معلوماً وهي :

طاوعت يا ابو سعيد أشرار عدوانك

حتى علينا ظهر سعيك وعدوانك

والمصطفى لو بدى بالشر بَدوانك

لكْ يومْ ما ينفعك حضْرك وبَدوانك

فإن فيها اشارةً الى أن البدوان معه في ذلك الأمر، وأنهم لا ينفعونه، فظهر في تلك الوقعة غدر ابن مانع بمولانا وأخطاؤه القصديّة، وأخذه للأميرين المذكورين ومعاونته لابن عليان حتى أظفره الله عليهما، فلما فرغ من انشاء المواليا أمر بأن تركب العساكر في السفن والمقنيات والغربان، وتُشحن آلات البحر بادوات الحرب. وتقدم العسكر وذلك في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة، وركب هو وخاصته والذين تخلّفوا ولم يسيروا في السفن، فساروا من طريق البر، فلما تجاوز الموضع المعروف بالدير مر على مضارب لجماعة من أعراب المنتفق مقدمهم حمدان بن زوين فعزم عليه أن ينزل عنده وكانت تلك مكيدة منه يستمهله حتى يأتي ابن مانع فيصادف الغرّة منه، فبات تلك الليلة وقد علم ذلك منه بأمارات منها أنه لم يوف الخدمة من القيام، بأمر الطعام، الذي يجب لمثله على مثله، وأصبح وقد عصمه الله من شر مكيدته، وركب ابن مانع الى الموضع المعلوم بينه وبين حمدان، ففاته المراد وكرّ راجعاً طامعاً في البصرة لخلوها من العساكر، فصادف في قفوله الأميرين المذكرين ختَنى مولانا على كرائمه وجمعه آغا أحد الأعيان قد خرجوا بعسكرهم في أثر العسكر ونزلوا في أرض الدير، ونصبوا خيامهم للقيلولة فأنفذ سهمه، ونفث سمّه، بالقبض عليهما، وأخذ ما في معسكرهما من الخيل والاسلحة وعفى عن جمعة آغا وأطلقه لمحبة اكيدة كانت بينهما، وزحف الى البصرة محاصراً لها، فلما بلغ الخبر الى مولانا دام مجده وهو يومئذ في الموضع المعروف بالقرنة أرسل من رماة السهام جماعة، وأمَّر عليهم ربيع بلوكباشي وعباس قُلي الكردي الى البصرة، ونهضت مواكبه المحفوفة بالنصر، وجحافله المعوّدة للظفر، ونزل بظاهر الفتحية لمحاربة ابن عليان، وكان قد استخلف علي آغا على البصرة، فورد ابن مانع الى البصرة محارباً، وأين هو من

ذلك ؟!! فانها مشحونة بالناس ، من ذوي الباس ، فأقام أياماً يقدم رجلا ويؤخر أخرى في المحاصرة لفقده البصيرة ، وليتها الباصرة ، وظهر عجزه عن المقاومة ، ونكوله عن المصادمة فانكفأ الى قلعته المسماة (كويبدة) وحبس الأميرين فيها ، وعلم أنه أوقع نفسه في أمر عظيم ، وخطب جسيم ، وجلس ينتظر ما يؤول اليه أمر ابن عليان وخشي إن تطاول جلوسه واصراره على غدره حتى تدور الدائرة عليه ، لم يقبل منه عذر ولا تؤخذ فيه شفاعة ويكون عاقبة الأمر الفتق ، الذي لا يرتق ، أو تذهب دولته ، والجرح الذى لا يوسى أو تزول نعمته ، فألقى الشفعاء كالشيخ الجليل محمد بن احمد المحلي المفتي والشيخ طه بن عبد السلام واصحابهما من أرباب العمائم واصحاب المناصب ، بينه وبين مولانا متنصلا بعذره تائباً من غدره ، فصادفوا منه العفو الذي اعتاده ، والصفح الذي جعله شيمة وعادة ، فارسلوا اليه ، بما وقفوا عليه ، فركب هو وإخوته وأطلق الأميرين وأتى بهما صحبته ، ورد عليهما ما أخذ منهما من الخيل والسلاح ، وأتى وهو متردد بين أمرين خشية السيف التي تأمر بالعود الى قلعته ، واعتقاد العفو من الباشا الذي يحثه على المسير الى ولي نعمته ، فوثق بالسلامة لما يعهده من حسن أخلاق مولانا واستعماله فنون المحامد ، واحتماله لاجلها المصائب والشدائد ، وقدم عليه في العشر الأواخر من الشهر المذكور فتلقاه بالبشر والألفة وحسن الخلق كجاري عادته ، وصفح بمقتضى شيمته ، وسأله العفو عن ابن عليان فأجابه الى سؤاله وأمر العساكر بالانصراف عن محاربته ، وأظهر الرضى عليه بابقائه على بلاد أقطعه اياها ، وكانت في يديه ، وكنت من جملة الحاضرين في ذلك الموقف ، وكان ممن حضر هذه الواقعة تحت لوائه من العسكر اربعة عشر الف نفس لاني سألت القيم بأمر طعامهم من مطابخه وأنباراته فأجابني كما ذكرت ، ومن جملة من حضر في تلك الوقعة الأمير أبو طالب بن ناصر ابن سناله القشعمي أمير امراء العرب العراقيين وكان هو وعسكره ممن تدر عليهم الميرة لهم ولدوابهم ، فلما قضى أمر هذه الحادثة كما شرحناه خفقت أعلامه وراياته ، وماج البر بخيله

ودبّاباته [1] والتطم البحر بغربانه، ومقذّياته، قافلا بالنصر، راجعاً بالظفر، ملتحفاً بعز الله متشحاً بعنايته، مكفولا بنصره وكفايته، ومعه الأمير أبو طالب فدخل البصرة وأفاض سحاب إحسانه، وأجرى بحور امتنانه، على الأمير المذكور وعلى عسكره، من النقود والعروض والخيل والسلاح والخلع والميرة، وعلى أعرابه المنتسبين اليه القشعميين والخالديين بما لا مزيد عليه، ولم يصل قبله مثله اليه.

ثم دخلت السنة السادسة والثلاثون وفيها افتتح سلمه الله القلعة المعروفة بـ (كويبدة [2]) بعد أن هزم عنها عبد الله ابن مانع المذكور آنفاً.

(ذكر السبب في ذلك)

قد قدمنا ما وقع من غدره بالأميرين المذكورين واشتماله بالعفو والصفح فلم يزده ذلك الا خبث سريرة، وإعمال مكيدة، وجعل يتعلل اذا دعى ويصادق الأعداء خفية فلم يدم له ذلك برهة حتى حشدت عليه العساكر وتم أمر الركوب، فركب مولانا في شهر ربيع الأول المبارك من السنة المذكورة، وقد أرجف أنه ومن معه قد حلفوا بالطلاق ان يصدموا قلب العسكر، وكان هذا الارجاف الجزء الأخير من العلة التامة لقلعه، والسبب الاكبر لقمعه، فلما خفقت الأعلام، وتمارحت ابناء الصدام، وغصت الأرض بالجحافل، وسترت الشمس بالقساطل، ولم يزده الحلف إلاّ نكولا، ولم توله الأيمان إلا فراراً وأفولا ولم يلبث حتى يرى السيوف مصلتةً، والأسنة مشرعةً، بل طار حين رأي الغبار، وانهزم وندم، حيث لا ينفع الندم، وما اجدره بقول أبي الطيب يخاطب ابن شمشقيق حين حلف برأس الملك أن يلقى سيف الدولة ويأتي به أسيراً :

---

(١) آلة تتخذ فى حصار القلعة كانوا يدخلون في جوفها ثم يذهبون الى أصل الحصن فينقبونه، فهم في جوفها بمأمن مما يرمى اليهم.

(٢) بالباء الموحدة والدال المهملة تصغير كابدة مشتق من الكبد وهو احتراق القلب أي المحرقة قلب العدو.

عُقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وفي اليمين على ما أنت واعده ما دلّ أنك في الميعاد متهم

آلى الفتى ابن شُمُشْقيق فأحنثه فتى من الضرب تُنسى عنده الكلم

أين البطارق والحلف الذي حلفوا بمفرق المُلْك والزعمُ الذي زعموا

ولّى صوارمهُ إكذابَ قولهم فهُنَّ ألسنةٌ أفواهها القِممُ

فدخل بعسكره منصوراً ظافراً الى القلعة وأمر باحراقها كصنع المعتصم العباسي في عمورية حين افتتحها وأحرقها .

وفي هذه السنة الفتُ كتابي المسمى بثمر الاستمداد ، وهو كتاب أحببت ذكره وذكر السبب في تأليفه لأنه شرح دوبيت من نظم مولانا دام عزه ، وكان السبب في ذلك أنه لما نظمه وأنشدني اياه ، أخذت في تقريضه ، والثناء عليه ، وكان من جملة ما قلت في مدحه ، انه قابل أن يشرح بمجلد ، لما فيه من المعاني الفائقة ، والألفاظ الرائقة ، واشتمل على صناعة التجنيس المذيّل ، وللاديب في الكلام عليه والاستطراد بما تسوقه الفاظه ومعانيه اليه ، مجال يمرح جواد فهمه فيه ، كيف شاء وانّى أراد ، فقال المرحوم عبد القادر افندي ظناً منه ان هذا الكلام جار على منوال ثناء الخادم على المخدوم ، وشكر المنعم الواجب على المنعم عليه ، لقصور باعه عن إدراك مثل هذه المطالب ، - يا فلان هذه مبالغة ، فقلت له - وقد حصلت بي حدة - هذا الذي ذكرته لك أتمه إن شاء الله تعالى في اسبوع واحد ، واتفق مسير الباشا - دام ظله - لافتتاح القلعة المعروفة بـ (كويبدة) ولم يلبث في ذلك الا اسبوعاً واحداً ، فاشتغلت بتأليفه واتفق اتمامه برجوعه ولم اطالع له كتاباً ، وانما الفته من محفوظاتي فقط ، والدوبيت الذي شرح بالكتاب المذكور هو :

من كان له حبُّك كاف كافل

والدمع بوجنتيه جاف جافل

والنوم لمقلتيه جاف جافل

يهواك وعن سواك غاف غافل

والسبب في نظمه انه أنشد في حضرته قول الشاعر :

الورد بوجنتيك زاهٍ زاهر

والسحر بمقلتيك وافٍ وافر

والعاشق في هواك ساهٍ ساهر

يرجو ويخاف فهو شاكٍ شاكر

فنظم هذا الدوبيت ارتجالاً .

وله من الارتجال ما هو أعظم من ذلك ، وذلك أنّي كنت جالساً معه في مجلس أبيه في ضيافة ، فقال والده رحمه الله ـ ما أحسن قول الشاعر :

الحاضرون بلا حضورك غُيَّبٌ والغائبون اذا حضرتَ حُضور

ومراده بذلك مخاطبته به واظهار اشتياقه الى مجالسته ومحادثته ، والأمر كذلك فانه قلّ ان يُسمع بمحبة والدٍ لولد كمحبة الباشا الكبير له مُد ظِلّه ، وذلك لأنه بلغ في طاعته ومراقبته إياه أنه وهو ذو أولاد لا يستقل بأمر ولو كان الخروج الى المسجد أو الحمام من غير إذنه ، فخاطبني والده رحمه الله أنه يوجد تجنيس للفظ حضور اكثر من اثنين ، فارتجل ـ سلمه الله ـ بمواليا ، وكان من شدة حيائه من مخاطبة أبيه ينشدني اياها ، مصراعاً مصراعاً ، حتى حفظتُها وانشدت والده اياها ، وهي هذه : —

يامَن بنى للجميل مداين وحضور

لا زلت تعمل على مرّ الزمان حضور

يامن بسيفك اطاعك بدوُها وحضور

إن غِبتَ غاب الجميع وان حضرت حضور

وله من الارتجالات في الأجوبة والتواريخ وغيرهما ما لامزيد عليه ، بل لاوصول اليه ، فلنذكر من ذلك بعض ما يحضرنا الآن .

منها . ـ انه أتى اليه بعض خدامه في سنة إحدى وأربعين والف فقال : ـ تأريخ هذه السنة [غالى] ، أشار الى حساب الحروف المتعارف ، وهو المسمى بالجمل الكبير فأجاب بديهة لا ولكن تأريخها [رخص الطعام] ، وهذا عندي من المعجزات الباهرات على صفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، واتقاد فهمه ، ولله درّه كيف قابل مطلوبَ القائل المكروه عند الخاص والعام ، بضده المطلوب لسائر الأنام ، والمرغوب فيه لغذاء الناس والأنعام ، وهو دليل واضح على اختياره الرفاهية للعباد .

ومنها : ـ أني كنت جالساً عنده ، فقدِم صاحبنا المرحوم المغفور له الشيخ عبدالله الحلي من العتبات المشرّفات في السنة الثالثة والأربعين بعد الألف فقال ارتجالاً تأريخاً (جاءك الشيخ الحِلِّي) .

ومنها : ـ أن رجلاً من الفقراء اسمه (درويش قاسم) وهو ممن يحضر مجلسه فانقطع معتكفاً في أربعينية في سنة تسع واربعين يستعملها الفقراء وهي ان يجلسوا في مكان واحد أربعين يوماً ويسمى في اصطلاحهم [چله] اذ الأربعين في الفارسية اسمها [چل] ويقال فيها أيضاً [جهل] ، فقال بديهة : (قاسم بچله نشست) أي جلس .

ومنها : ـ اننا سرنا معه الى الأرض المعروفة (بالدُريهميَّة) وهي الموضع الذي وقع فيه حرب (الجمل) وفيه مشهد (طلحة) و (الزبير) رضي الله عنهما وجامع علي فرأينا غدير ماء كثير جداً فقال تأريخه (ماء غدير بلا نهاية) وذلك في سنة خمس وخمسين لأنه اذا انتفت نهاية لفظ غدير اعني الراء بقى العدد المذكور ، ـ فقلتُ في ذلك :

جئنا غديراً كثيرَ ماء　　　　مع صاحب الفضل والولاية
فقال : تأريخ ما رأينا　　　　(ماء غدير بلا نهاية)

ومنها : ـ انه قدم من سفر له إلى منزله بالبصرة فجلسنا عنده ، وكان الى جانبي الأمير خليل المقدم ذكره فتذاكرنا بنظم تأريخ يتضمن معنى انه شرف المنزل بقدومه ، أو أن نأتي بتأريخ يكون فيه لفظ الشرف أو التشريف ، ففهم ذلك منا ، فقال بديهة : (الله شرّف قدركما) وذلك في سنة احدى وخمسين ، ثم أتى بعد ذلك نظمتُ تأريخين في ذلك ونظمت قطعة حكيت فيها هذه القصة والتواريخ ، فمن أراد الوقوف عليها فليراجع كتابنا الموسوم بقطر الغمام ، في شرح (كلام الملوك ملوك الكلام) .

ومنها : ـ انه اجتمع عنده قوم من أرباب العمائم ، فتناقلوا الحديث فافضوا الى قوله عليه الصلاة والسلام : (لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لما أكل المؤمن منها الا حلالاً) فقال بديهةً : نعم لأن المؤمن لا يتناول الا ما هو مضطر اليه وعند الضرورات تباح المحظورات .

ومنها : — أنه اعترض بعض جلسائه على بعض المصنفين في الأعمال الموسيقية وقد صنف تصنيفاً شابه به تصنيف غيره ، فقال بديهة : إن تأليف التصانيف من النغمات كتأليف الكلمات من الحروف ، فقد تتحد حروف بعض الكلمات مع كلمة أخرى وكل لها معنى غير أختها الأخرى ، ألا ترى إذا نظرنا الى زيدٍ وصيدٍ وجدنا ثلثي أحدهما من الآخر ، وكل منهما له معنى غير الآخر ، فاذا حصل في التصنيف فارق بينه وبين غيره ولو قليلاً لم يُعَبْ ، وصح أن يطلق عليه أنه تصنيف برأسه . وانتقلت من كلامه هذا الى أبواب في فنّ التصنيف وأخذت أصنع بالنغمات والألحان ما يصنع بالكلام من الاختصار والتضمين ونقل الوجيز الى ضده ، وأمثال ذلك كما يظهر ذلك لمن تتبع مصنفاتنا الموسيقية ، وكان ذا ملكة وتدرُّبٍ في الفن .

ومنها :— أن أحد مجالسيه صار له ولد سمّاه أحمد وذلك في ربيع الثاني سنة ألف وسبع وخمسين ، فلما نقل اليه ذلك قال بديهة : تأريخه (ولد أحمد في ربيع الثاني) وهذا

من أعجب التواريخ .

ومنها :— أنه تُلي في مجلسه يوماً قوله تعالي (وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) فسأل بعض الحاضرين عن وقوع (أو) المستعملة في التشكيك في كلام الله تعالى ، وأنه مما لا يجوز عليه ذلك ، فأجاب بعضهم بما هو معروف عند أهل الأدب من أنها بمعنى الواو ، فقال : سلمه الله يمكن أن يقال إن الآية وردت كما ورد قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) من خطاب الناس على ما هو المعمول المتعارف بينهم ، فانهم إذا أرادوا وصف شيء لم يتحققوه ، عبّروا عنه بكلام يشتمل على (أو) لقصورهم عن تحقيقه ، ولهذا الجواب حكاية أوردتُها في رسالتي الموسومة (بالنكت المجلسية ، في الدقائق العلوية) فَلتطالَعْ ثمة .

ثم دخلت السنة السابعة والثلاثون ولم يقع فيها شيء من الحوادث التي يُسَلُّ لها حُسام ، أو يثار لها قتام ، بالنسبة الى ما مضى ، غير أن نعمة الله بن عليان إغتنم فرصة ، وانتهز غفلة ، من الأجناد في ناحية الفتحية وأبو غربة فأوغر صدور جماعة من أهل تلك الأطراف ، فانحاز اليه الأمير ناصر الدين بن هاشم أحد الأمراء الأعيان في الجزائر ، فركب سلمه الله في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة ، ونزل مدينة ابن عليان ، وأرسل جماعة من الرجال الى جانب الفتحية وأبو غربة ، فبنوا قلعة وصالت عليهم مُتجندّةُ ابن عليان فقاتلوهم قتالاً شديداً ، فهُزموا باذن الله ، وأرسل الشفعاء يسأل العفو ، وأن ينزل له عما في يد الأمير ناصر الدين ، فسبق الأمير المذكور بالمبادرة الى الطاعة ، فانضم الى أولياء الدولة وسمح بابنته لمولانا اشتياقاً لعبوديته فقبل ذلك وتزوّجها ، فولدت له الأمير ملك شاه ، ثم اخترمته المنية ، واستلبته الأمنية ، فلما فرغ من شأن ابن عليان عطف راجعاً الى البصرة معتقداً — لصفاء سريرته ، وطيب نيته — إن الاحسان السابق ، والعفو اللاحق ، قد عمل عمله ، وأثر أثره ، في ابن عليان ، فأخلف ما وعد ، وأفسد وفسد ، وعمل

ما يوجب الانتقام ، ويُعرِّض للملام .

ثم دخلت السنة الثامنة والثلاثون ، وكان فيها خروج ابن عليان من ملكه وملك أبيه ، وتفرّق بينه وذويه ، وتشريده عن أوطانه ، ومفارقته لأوليائه واخوانه :

وإذا بَدَتْ للنمل أجنحة حتى يطير فقددنا عَطَبُه

وكان السبب في ذلك أنه لما دخل في الطاعة ، وأعتذر عما أوجب الشناعة ، وشمله العفو والغفران ، واللطف والاحسان ، أمر مولانا جميع أمراء الجزائر أن ينقادوا اليه ، ويعوّلوا في جميع أمورهم عليه ، وأن يؤدوا ما عليهم من القطايع المالية ، للدولة على يديه ، وأن يكون هو الواسطة بينهم وبين عمال الديوان ، فكانوا يحسدونه على ما هو عليه ، وما انتهوا هم اليه ، فلم يجدوا لهم مدخلاً يشفى صدورهم ، ويقوّي أمورهم ، إلا أن تقف عنه المراحم ، وتستوغر منه الصدور ، ويُتجنَّب بعد أن كان الصديق الحميم ، ويستغربَ بعد أن كان العزيز الصميم ، وليس ذلك إلا باظهار عصيانه ، وإعلان شقاقه وعدوانه ، فدخلوا عليه بأن هذه البلاد ، لك إرث من الآباء والأجداد ، وما يزيدك دخولك في الطاعة إلا ذُلا ، ونحن أولائك ، أولياء آبائك ، من قديم الدهر ، وسالف العصر ، وزيّنوا له عمله ، فظاهرهم على ذلك ، وسلك أصعب المسالك ، فأعلن بصوت العصيان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وجمّ غفير ، فظن أن ذلك جبل يعصمه ولا عاصم من أمر الله ، فركبت العساكر في البر والبحر ، وتقدمت الغربان والقايات[1] وزحف اليهم العسكر حتى عينوا موضعاً قريباً من قلعته ، وكانت قلعته يومئذ نهر صالح ، فساروا ليلا الى الموضع ، فشرعوا في هدم بنائه ، فهجمت عليهم عساكر ابن عليان وأمراء الجزائر الظاهرين له جهراً ، المنافقين له سراً ، فقتل أكثر شجعانهم ، وفقد جليل فتيانهم ، وفي تلك الليلة لم يجد بداً من العمل بقولهم : الفرار في وقته ظفر ، فاتخذ الليل جملاً وأخلى القلعة وفر . وكانت هذه الوقعة من الوقايع المشهورة

(١) يظهر أن القايات نوع من السفن كالغربان .

في تلك الديار ، وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة ، فورد الى العرجاء ، وحاكمها يومئذ حسن آغا ، وكان ممن ينحو نحو ابن عليان وابن مانع ، فاجتمع رأيهما على أن يقصد ابن عليان المذكور إمام قُلي خان ابن الله وردي خان المقدم ذكره ، مستنجداً به ومحركاً له على أخذ ضغائنه من البصرة ، مقتصّاً منهم لعسكره المقتول في القبّان ، المهزوم هزيمة الضان ، فعمد الى رفقة خرجوا معه ، فصوبوا الرأي وصادف منهم هذا الرأي انحدار الخان مسترخصاً من مولاه الشاه عباس الصفوي في محاربة البصرة فانّحدر معه ، وكان مشيره ومدبره في هذا السفر ، وهو أعظم الوقائع وأجلّ المصائب ، فانه لم يرد على البصرة مثله في الأيام الخالية .

ذكر نزول الخان على البصرة وهو المسمى بوقعة الرباط

قد ذكرنا فيما سبق عداوة الخان لهذه الإمارة المحروسة ، ولم نذكر السبب في ذلك ، والسبب الذي أوجد هذه الوحشة والمنافرة ما حكاه لي سلّمه الله قال : — لما افتتح الشاه عباس بغداد وطمع في انقياد الباشا المرحوم اليه ، والتعويل في كل أموره عليه ، فأرسل اليه كتاباً فلم يأذن للرسول بملاقاته ولا أخذ منه الكتاب بل أخافه وأمره بالانصراف من غير ملاقاة ، وارتحل الشاه ، فأرسل مكتوباً ثانياً يتضمن إظهار المحبة والأمر بمتابعة الخان ، إن عنّ رأي أو تدبير ، فكان ذلك باعثاً لازدياد الوحشة والمنافرة بعد أن كان بين الباشا المرحوم وبين الشاه من إرسال الرسل والهدايا مالا يخفى على أهل العصر ، فاستحكمت العداوة بينهما : للبصرة وأهليها وحاكمها وواليها . فلما انحدر الخان كما ذكرنا ضم اليه الشاه أكثر عساكره ، وكان طريقه من بغداد فانضم اليه عسكرها وعسكر الخزاعل وحسن آغا وعساكر الجزائر لأنه لم تبق قلعة ولا مدينة من الجزائر وسائر ما يحتوي عليه أطراف البصرة إلا خلت من عساكر مولانا ، فمنهم من ثبت اخلاصه ، ولحق بمولاه ، ومنهم من ظهر نفاقه فوافق أعداه ، ولم

يبق سوى قلعة (السُويب) فانه شحنها بكماة رجاله من أهل البصرة ، والقلعة المسماة (بكردلان) وقلعة (القبان) فنزل الخان بعساكره في الطرف الغربي من البصرة ، فورد على أهل البلد من نزوله أمر عظيم ، وخطب جسيم ، يئست به الأحياء من الحياة ، وأحسوا وهم أحياء بالوفاة ، فمنهم من أشار بالخروج عنها ، ومنهم من أشار بتسليمها اليه أو الدخول في طاعته ، وثبّت الله الذين صبروا منهم معه مقتدين برأيه ، مستفيضين بتدبيره وآرائه ، وهو مع ذلك لم يظهر على وجهه ما يُظن معه الخَوَرُ والجبن ، وأظهر من عادته من الطلاقة والبشر ما لا يطوف بنواحيه الحزن ، ورتّب العساكر المحاصرين معه على مراتبهم ، وكان فيهم من أهل النفاق جماعة كثيرة فطِنَ لهم ، ولم يظهر لهم أنه فهم ذلك منهم ، فخالطهم بذوى الإخلاص من خدمه وعسكره ، وأخذت عساكر الأتراك بعادتهم في محاربة المدائن من النقب في الأرض الممكنة النقب ، ووضع السلالم في غيرها ، فكان كلما تقدمت لهم قدم أخّرها بضرب المدافع والأتفاق [1] .

هذا شأن البصرة ومن فيها ، وأما السُّويب فنزلت عليه عساكر الخان أيضاً ، ومقدمهم ختنه على ابنته السيد محمد خان ابن السيد مبارك خان ، فألقى الحرب على الناحيتين حتى ساءت الظنون ، وتُوُقِّعت المنون ، ولم يعلم الغافلون ، أن الأمر موكول إلى من يقول للشيء كن فيكون ، فورد على الخان أن الشاه عباس قد انتقل من دار الفرار الى دار القرار ، وبُدل بعد العز والسلطان بالاستكانة والهوان ، وأضحى بعد أن كان سلطان الأرض أسير شبر منها ، وعاد اليها كما أخرج عنها ، فكان ذلك أعظم دليل على حظ مولانا واستفحال طالعه ، ونظر الحق سبحانه اليه ، وإضفاء [2] بردود العناية عليه ، إذ لم تدرك العقول فَرَجاً لتلك الشدة ، ولا هادماً لذلك البناء ، ودافعاً لتلك الأعداء ، إلا موت كبيرهم الذي

---

(١) الظاهر أنه جمع تفق معرب تفك أي البندقية .

(٢) من أضفى بمعنى أسبغ .

أمرهم بذلك ، وأسلكهم تلك المسالك .

ومن لم يُوَقّ الله فهو الممزّق ومن لم يُعزِّ الله فهو ذليلُ

ومن لم يُردد الله في الأمر كلّه فليس لمخلوق اليه سبيلُ

فارتحل الخان ومن معه وأخذت عساكر مولانا ساقتهم [1] حتى أخرجوهم من الجزائر ، وعادت الأمور كما كانت ، وانفرجت الشدائد وبانت ، ولم يكن له في تلك الوقعة وذلك الثبات ، والاتكال على ربّ الأحياء والأموات ، والصبر على قضاء الله والانتظار لفرجه القريب مُشارك أو مُوات [2] ، فكان الغرض الأصلي ، والمطلب الكلي ، من تقدير تلك الواقعة محض إظهار شأنه ، وتقوية أركانه ، واهتداء الناس إلى ما انطوت عليه سريرته من الرضى بالقضا وثبات القلب ، نعم : —

وإذا أراد الله كشفَ فضيلة خفيت أتاح لها لسان حسود

لو لا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف فضل عرف العود

وهكذا يجب على ذوى العقول الصبر وانتظار الفرج من الذى يجعل بعد عُسر يسرا ، وينزّل الغيث من بعد ما قنطوا ، وقد قال سبحانه وتعالى : — [حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرُنا فنجّى من نشاء] ، وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) (لو كان العسر في جُحرٍ لدخل عليه اليُسر حتى يخرجه) .

وكل حزن وإن طالت بليّته يوما تَكَشّفُ غماه وتنفرج

وقال آخر : —

الأمن والخوف أيام مداولة بين الأنام وبعد الضيق متسع

ثم دخلت السنة التاسعة والثلاثون وفيها قتل ابن مانع .

(١) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٢) اسم فاعل من آتاه على الشيء : وافقه .

ذكر السبب في ذلك

قد ذكرنا نبذاً من أحواله وما انطوت عليه نيته وسريرته من الغدْر ، وأضيف الى ذلك أنه لما انحدر الخان إلى البصرة في السنة المتقدمة ركب بعسكره ولحق بالخان بعد أن أرسل اليه الباشا جملة من خواصه يستميله الى البقاء معه والمقام في البلاد ، ورغّبه في إقطاعات جليلة ، وعطايا غير قليلة ، فلما انفصلت تلك المصيبة ، واتسع ذلك الضيق قَدم الى مولانا من غير أمان ، فأكرمه وأحسن إليه وشرط عليه أن لا يُضمر خلاف ما يظهر من الانقياد ، وجعل من جملة الأمارات الدالة على حسن اعتقاده ، وصفاء طويته أن لا يراسل حاكم العرجاء حسن آغا وشرط عليه شروطاً فقبل ذلك وخلع عليه ، ومضى إلى أهله فلم يلبث أياماً حتى وقف بعض أولياء الدولة على مكاتيب له أرسلها مع هدايا إلى حسن آغا المذكور ، واتفق أنه قد قصد الحضرة بعدها ، فأخذ بذنبه ، وقتل بكذبه .

وفيها (أي في السنة المذكورة) ركب الباشا لمحاربة حاكم العرجاء ونهب المنتفك ورئيسهم يومئذ (حمود بن نافع) فلم يبق لهم ناغية ولا راغية (أي لا شاة ولا ناقة) وأرسل حسن غا الشفعاء بهدايا كثيرة ، وأموال غزيرة ، وخيل عربية ، فخلع عليه وصفح وعفا ورجع الى البصرة .

ثم دخلت السنة الأربعون وفيها مات حسن بك حاكم القلعة المعروفة (بالزكية) وقام ولده مقامه ، فالتجأ إلى ظل مولانا دام عزه ومات فانضافت الزكية وما يلحقها من القلاع كالقلعة المعروفة بـ (أبو سدرة) وقلعة (المكشّف) وما والاها إلى بلاده ، ورتّب في القلاع المذكورة من اجناده من يقوم بأمرها ويسدّ خللها وكانت قلعة المكشف في يد أصحاب السيد محمد خان ، فلما ورد العسكر لأخذ (أبو سدرة) أرسل السيد محمد خان كتاباً يتضمن الانكار على ارسال العسكر لفتح القلعة المذكورة وكان ذلك باعثاً لاثارة الغضب وتسيير

الجند إلى أخذ قلعة المكشف من يده فأخذت بعد أن فر أصحابه منها قبل اللقاء وانهزموا قبل قرع القنا .

ثم دخلت السنة الحادية والأربعون ، وفيها كانت المصالحة فيما بينه وبين الخان .
والسبب في ذلك أن وزراء الخان المقربين كالسيد الجليل الأمير أبو الحسن الفداهاني والأمير (پولاذ بك) أرسلا كتباً تتضمن المحبة والنصيحة والاشارة بالموافقة ، وترك المخالفة ، نظراً إلى الاعتداد لما سيحدثه الزمان من الاجحاف والاعتساف للطرفين ، فيكون كل منهما ظهراً لصاحبه و مُعيناً له على نوائب الحدثان ، فوقع هذا موقع القبول ، فارسل هدايا وتحفاً وخيلا جياداً على يد الأمير خليل بك الى الخان ، فالتقاه باحسن ما يُلتقى مثله ، وخلع عليه وأعطاه ورجع في السنة المذكورة .

ذكر واقعة الهندي

وهي من عجائب الوقايع ، ودواهي المصائب ، وذلك أنه حفظه الله لم يزل مُذ كان محباً للفقراء ، لا سيما الفقراء الذين ينحون نحو السياحة والدروشة ، وينتسبون الى تتبع الأشعار ومعرفة النسبة التأليفية من الرياضي المسمى بالموسيقى لأن له اليد الطولى في هذين الفنين ، فانه بلغّه الله آماله ، وأحسن في الدارين حاله ومآله ، بلغ من ذلك أنه ينظم المُعمّى في اللسان التركي والفارسي والعربي ، ويوقع اللحن في أدنى زمان على فنون الضروب . وأشعاره وإيقاعاته التي يتعاطاها أرباب هذه الصناعة مشهورة .

وكان هذا الرجل الهندي درويشاً ورد على حضرته فأدناه ودخل مع المجالسين في خدمته ، وسأل منه أن يعطيه قرآناً فوهبه ذلك ، فعزم مولانا دام عزه يوماً على الركوب في السفينة إلى أحد متنزهاته وهو الموضع المعروف بالمناوي الذي قلت فيه قصيدتي النونية ، أمدح بها حضرته :

بمنّاويّنا طرَبُ الزمان ومرتبعُ المسرة والأماني

وهي مثبتة في ديواننا العربي ، من أراد الوقوف عليها فليراجعه ؛ نخرج من باب الشط فلم يشعر إلاّ والسكين قد أفْرَتْ ثيابه من كتفه الأيمن ، فالتفت فرأى الهندي قد جذب السكين منه وأهوى اليه بثانية فالتقاها بيده ، وأخذت السيوف الرجل الهندي من الغلمان الذين يمشون خلفه فالتفت اليهم وقد منعهم عنه ، وأخذت منه الجروح مأخذاً عظيما وعزم سلمه الله على الانصراف لشأنه ، فأشار اليه بعض خواصه برجوعه إلى بيته لكيلا يضطرب الناس وتكثر الأراجيف ، فرجع وأمر باحضار الهندي ، فأظهر الجنون والصرع ، وسأله عن السبب الذي أداه إلى أن يفعل ما فعل ، فجعل يقول تارة أمرني فلان بذلك ، ثم يسأله أخرى فيغيّر ما قال إلى أن استقر قراره على رجل يسمي حمزة من أتباع المرحوم علي آغا ابن عليشاه بك ختن مولانا على كريمته ، فسكت عنه لأن ما نسبه إلى المذكور ، لا يصدقه من له أدنى شعور ، لأنه من أشدّ الناس له إخلاصاً ، واكملهم اختصاصاً ، فأمر بحبسه في موضع تُداوي فيه جروحه ، وأمرّ عليه ميرته وما يحتاج اليه ، وكنت يومئذ في بلدي ، فبينما أنا جالس على باب داري إذ مرَّ بي اثنان ، وأحدهما يتردد على لسانه اسم مولانا دام عزه فدعوته وسألته عما يقولان ، فحكى لي هذه القصة ، وسألته عن سلامة مولانا ، فأجابني بما سرّني من بقائه سالماً ، فنظمت بداهة هذا المقطوع وهو من بحر الرجز المخبون :

سمعتُ قائلا علي باشا علي باشا ومرّ

فقلت ذا مبتدأ ويحك قل لي ما الخبر ؟

فقال قد ألحمه الهندي سكيناً وفرّ

لكنّه قد عاش قلتُ الجود أخطاه القدر

وكانت هذه الواقعة في شهر رجب من السنة المذكورة ، وقدمتُ إلى حضرته في شهر شعبان من تلك السنة ، فلما كانت ليلة عيد الفطر سأل منه الأمير عبد العزيز خال ولده

السعيد الرشيد حسين بك دام عزه إطلاق أحد المحبوسين وهو من آحاد عبيـــد مولانا يسمى كنجي ، فأمر باطلاقه ، وسألت منه لما أعرفه من كرم طباعه وجميل شيمته العفو عن الهندي فقال : قد أصبتَ ما في الضمير وأمر باطلاقه وأمدّهُ بنفقة وأجلسه في سفينة ، ووكل به جماعة يحفظونه في طريقه من أن يلاقيه بعضُ مخلصي دولته ، وغرس نعمته ، فيناله بمكروه إلى أن يصل إلى الأحساء ، ويرجعون عنه بمكتوب يخبر عن وصوله سالماً إلى تلك البلاد ، فانظروا يا ذوي الانصاف ، ومُجانبي الشقاق والاعتساف ، إلى هذه النفس السليمة ، والجبلّـة المستقيمة ، التي لم يُخرجها مثل هذا الأذى من أداني نوع الانسان عن حلمها ، ولم تزعزعها القوة الغضبية التي لا تقاومها قوة من الحواس عن تحمّـلها ، ولـكنها شيمة جُبل عليها ، وسجية خُلق معها .

ثم دخلت السنة الثالثة والأربعون وكان فيها فتح الجزائر .

ذكر فتح الجزائر واخراج أهلها منها

لابأس ببيان طرف يسير من أحوالها ، وهي جمع جزيزة بالجيم والزاي وياء بعدها راء وهاء ، والجزيرة الارض المحيط بها الماء ، وهي كذلك لأنها شطوط وأنهر وقعت تلك الأراضي بينها ، وأملاك أهاليها وضياعهم فيها ، وشطها شط الفرات، والشطوط والأنهر مشتقة منه من الطرفين وقد اعتنوا ببناء القلاع في تلك الأراضي حتى أنه قد يكون للواحد منهم في قليل من الأرض القلعتان والثلاث ، ولـكنهم قوم سخاف العقول قد أخذ منهم الطيش والحمق طرفاً قوياً ، وجبلوا على نقض المواثيق والأيمان ، وأرضهم صعبة المسلك ، شديدة المعرك ، لالتفاف غيضها وشجرها ، وإحاطة الماء بها ، وكل من ملك منهم قلعة أو أكثر لقّـب بالأمير ، ولم يُسمع في سالف الزمان أن أحداً من الملوك قهرهم ، وأخرجهم من ديارهم ، وكان الباشا المرحوم قد أخذ من قلاعهم بعضها ورتب فيها أمراء من ذوي النجدة

من عسكره ، وأقام الباقين منهم مقامهم ، مصالحاً إياهم على مال ، وجرى مولانا دام عزه على ذلك حتى أبطرتهم النعمة ، وأرنت بهم الراحة ، فوسوس لهم الشيطان الخروج عن دائرة الاعتدال ، والعروج إلى ما لا ينال ، من التنكب عن طريق الطاعة ، فظهر من بعضهم ما يخالف شروط الإخلاص ، الذي ليس لهم عنه مناص ، وذلك في السنة الثالثة والأربعين بعد الألف ، واتفق في تلك السنة إزدياد الدجلتين حتى طاف الماء بقلاعهم ، وملك جميع أراضيهم ، واعتقدوا أنهم في مثل هذه السنة لا يُدرك منهم ثار ، ولا يصل اليهم من المكروه غبار ، فركب سلمه الله متصيّداً ، وكنت ممن تشرّف بملازمته في ذلك السفر في العشر الأواخر من جمادى الثاني من السنة المذكورة ، ونزل القرنة في العشر الأوائل من شهر رجب وصادف خروجه إلى القرنة الخبر بورود ابن عليان عليهم ، فانهم استقدموه بكتبهم ، ودعوه إلى ما عنّ له من الرأي ، وكان قبل وصول هذا الخبر تتردد السفراء بينهم وبين الأمير زنبور في أن يعطوا بعض أولادهم رهناً على الوفاء بشروط الخدمة وأن يقطعوا على أنفسهم مالاً يؤدونه في كل سنة ، وكان مولانا دام عزه قريباً من الرضا عنهم في ذلك ، فلما علم منهم إستقدامهم ابن عليان نكب عما عزم عليه أولاً من قبول مُلتمساتهم والرِّضا باقطاعاتهم ورهائنهم إلى الايقاع بهم والحرب معهم ، وأشار النصحاء بالصلح لعسر ديارهم في مثل ذلك الوقت ، فأجاب إلى ما سألوه ولكنه مشروط بنفي ابن عليان عنهم والقبض عليه ، وإرساله اليه ، فلم يقبلوا فسار من القرنة اليهم في اليوم السابع من شهر رجب ، ونزل ظاهر الفتحية ، وأمر الأمير زنبور والأمير ناصر الدين بن هاشم — وهو يومئذ والي نهر عنتر بصحبة أخيه الأمير أحمد بك ابن الباشا المرحوم ، وكان يومئذ والي نهر صالح والقلاع — أن يوقعوا الحرب عليهم ، ويتقدموا بجيوشهم اليهم ، فنزلوا أرضاً يقال لها (طُرَيسه) بضم الطاء ، وبنوا فيها قلعة ، فلما تسامعت بهم أهل الجزائر وأمراؤها

لمّوا جماعاتهم ، وساروا بكليتهم اليهم ، واتفق وصولهم ليلاً فاشتعلت نار الحرب بين الفريقين ، وكشر الشرَّ عن أنيابه من الطرفين ، ومُلئت الأرض من مطر البنادق والسهام ، ولبست السماء ثوباً من دخان البارود أثخن من برود الغمام ، وثبت لهم عسكر مولانا الذي عوّده الله أن يُهزِم ولا يُهزَم وأن يَغْنَم ولا يُغنَم ، حتى نفذت سهامهم وبنادقهم ، وتبادرت شجعانهم بالسيوف ، فالتقوهم بقلوب أمثال الجبال الرواسي ، والحجر القاسي ، فلم يرُع الأعداء الاّ بروق الصوارم ، ورعد أصوات الضراغم ، فلم يثبتوا لحملتهم ، ولم يصبروا على لقائهم ، فانهزموا هاربين ، وللنجاة طالبين ، لايلوي والد على ولده ، ولا يعرف أحدهم رجله من يده ، واستمرت الهزيمة عليهم ، وقد أخرجوا ما أمكنهم إخراجه من العيال والمال ، وأخلوا القلاع من سكانها ، وعسكر مولانا بأثرهم حتى استصفوا ذلك الطرف الذي هم فيه كله ، وباتوا تلك الليلة في غنيمة لم تُغنَم من قبلُ في تلك الديار ، وكان ابن عليان في الطرف الآخر من الشط ، فلما أحسّ بما جرى على تلك الفئة الباغية ، والفرقة الطاغية ، انهزم من عنده ، وأصبح أهل الجزائر الذين في طرفه منقادين متضرعين ، فرّ منهم من ظنّ ان الفرار يُنجيه ، وقرّ منهم من علم الشفقة والرأفة من مواليه ، فعبّر العسكر عليهم ، وأخذوا القلاع بأسرها منهم ، وأخرجوهم من ديارهم صاغرين ، وكان المفتتح من تلك القلاع ما يقرب من أربعين قلعة ، فرتّب فيها عساكره رجالاً من أولي البأس والإخلاص ، وكرّ راجعاً إلى البصرة من طريق الشطّ . وكنت معه في سفينة واحدة ، فيالك من يوم مُلِئ فيه البحر بجبال من السفن تسير سير السحاب ، وغربان على الماء كالأفيال على التراب ، فاذا رأيت ثَمّ رأيت الجواري المنشئات في البحر كالأعلام ، متتالية كأنها قطع الغمام ، أو الجبال والآكام ، وإذا نظرتَ ثَمَّ نظرتَ مدائن تمشي على الماء ، ومن شُرُعها سماء تعاقبُ السماء ، قد اختلطت أصوات الطبول بصَدي الماء ، فظننتَ أنه نفخ في الصور ، وامتزجت ضوضاء العساكر فحسبتَ أنه يوم النشور ، ودخل البصرة ظافراً منصوراً ، فَرِحاً

مسروراً ، بما أنعم الله به عليه ، ويسّره لديه ، وساقه اليه ، وذلك في شهر رجب من السنة المذكورة ؛ وفيها قدم عليه السيد محمد خان بن السيد مبارك وقد تغلب عليه عمه السيد منصور خان ، وأخذ بلاده (الحويزه) منه ، وقد كان فيما بينه وبين مولانا وحشة كما يُشعر به ما تقدم ، فلما أخرج من دياره قصد البصرة ، فالتقاه مولانا بأجمل هيئة وأكرم ملاقاته ، وأنزله في بيوت ولده السعيد الأمير حسين بك هو وأهله وعياله ، وأدرّ عليهم الجرايات اللائقـة لمثلهم ، ودفع اليه على يد الأمير خليل بك والمؤلف جملة جليلة من المال والخلع والثياب والخيل بالسروج المحلات بالفضـة مما يليق بمثله ، ثم أنزله في بيوت علي أغا في صدر الشط ، وأقام ما شاء الله إقامته ، وإنعامه تتواتر اليه ، وتترادف عليه حتى ارتحل ، ثم استمر الأمن والسكون والاستقرار على تناسب لذات العيش ، والتشمّر إلى اقتناص أنواع السرور ، والإقامة على إيفاء النفوس حقوقها من المشتهيات والمستلذات والمجالس المرغوبة ، والمفاكهات المحبوبة حتى دخلت السنة السابعة والأربعون ، وفيها أرسل الأمير خليل بك بهدايا وتحف إلى الشاه صفي الصفوي .

ذكر السبب في ذلك

والسبب في ذلك ـ كما أخبرني به أدام الله توفيقه ـ انه لما مات الشاه عباس وجلس موضعه الشاه صفي بن صفي ميرزا بن الشاه عبـاس وقع في قلب مولانا من عالم الغيب ومستقر الرحمة محبةُ الموافقة وترك الشقاق ، وكشف الله ذلك على قلب الشاه صفي ، وكان يراسل مولانا ويكلفه باهداء الخيل العتاق العربية ، ومولانا لا يألو جهداً في تحصيل ذلك حتى أنه بعث اليه بحصان يسمى شعلان ، قد بلغ ثمنه ألف تُمان ، وهي عبارة عن مائة ألف درهم ، فاتفق أن السلطان مراد خان ركب على آذربيجان ، وافتتح قلعـة (ايروان) ولم يمض كثير زمان ، حتى نزل عليها الشاه صفي وأخذها وسيّر عسكراً على أحمـد خان

(الكرد) ، وقد التجأ إلى الدولة العثمانية وجمع معه عسكراً عظيماً يقدمهم (الويوده) المعروف بـ (كچك أحمد پاشا) فظفر بهم عسكر الشاه وقتل الويوده ولم يبق حينئذٍ في وجهه معاند ولا مدافع ، فسير الأمير خليل بخيل كثيرة تجديداً لما سبق من المحبة ، واستكشافاً لما يضمره من أمور الملك وما يتعلق به ، فأكرم مثواه وأقبل عليه بكليته ، ورفع مجلسه وخلع عليه ، وأقام له على الأمراء مراسيم الضيافة ، فأضافوه كلهم ، ورجع سالماً غانماً .

وفي هذه السنة حج الباشا دام عزه بالناس ، وقد نظمت قصيدة بأمره تتضمن ما وقع في الطريق من يوم الرحيل من البصرة إلى يوم الرجوع اليها ، لأني كنتُ معه وليس الخبر كالعيان ، وهي هذه القصيدة : —

بالجد يُستدرك الآبي من الإرَب	فاكْدَحْ ولا تَكُ في عجز عن الطلب
ولا تخف كبوة الدهر الخؤون فكم	أعطى كثيراً بميسور من التعب
سار ابنُ عِمرانَ نحو الطور مقتبساً	وعاد للأهل بعد السير وهو نبي

والمرءُ كالسيف ان لم تَنْضِ صفحته
لم تدْرِ ذاك خُشيْبٌ أو من الخشب [1]

واثبتْ على صدمة الكرب الملّم فكم	قد فرّج الله بعد اليأس من كُرَب
ولا يُنهنهُك العُذّال أنهمُ	لم يفرقوا بين جِدِّ الأمر واللعب [2]
وانظر إلى الملك السامي أبي حسن	لما أراد قراع الرحل والقَتَب [3]

(١) تنض : من نضا السيف من غمده سله الخشيب : السيف الصقيل .

(٢) ينهنهك : أي يكفك ويزجرك

(٣) القراع : القرع . القتب : الرحل .

فـلا الفَلا بالمطايا غير مُكترثٍ … بصدق قول من اللاحي ولا كذب [1]

سـرى بنا ومَواضينـا تحفُ به … كالبدر حَفَّ به جيش من الشُهُب [2]

أنّى التفتنا رأينا الأسْـدَ مُطرِقةً … تغُضُّ عن ليثنا ألحاظَ مُرتهِبِ

شـوسٌ غطاريفُ صيـدٌ لو يروم بهـم

نَسْفَ الشـوامخ لم يُشـكل ولم يَنبِ [3]

من كل أروعَ قـد نيطت حمائله … في جيـدوَرد إلى الهيجاء منتسب [4]

دُسنا شَوى العرب العَربا بلا فشـل … من عزمنا كي نؤدّي جزية النشب [5]

وكـفُّـه والسحابُ الغرّ يمطرنـا … ذا بالطعام وذا بالصيّب السكب [6]

حتى إذا جازت الدهنـاءَ أينقنـا … فَرقَ القرارة في نجـد من الهضب [7]

ألقت عُنيزَةُ مولاهـا إلى ملك … أباحه خِلَعـاً تجـدى على الرُتب

وسـار والسُمُر تقفوه وتقدمه … سُرى الغضنفر بين الأجم والقُضب [8]

---

(١) فلا : فعل ماض بمعنى تخلل . الفلا : الصحراء : اللاحي : اللائم أي غير مكترث بقول اللائم سواء كان صادقاً أو كاذباً .

(٢) المواضي : جمع ماضية للسيف القاطع .

(٣) الشوس : جمع أشوس الشديد الجري في القتال . الغطاريف : جمع غطريف للسيد الصيد : جمع أصيد الأسد . يشكل : من أشكل الأمر التبس . ينب : من ناب بمعنى رجع أي لم يتردد .

(٤) الأروع : من يعجبك بحسنه وشجاعته . الورد : الأحمر الضارب الى الصفرة من الخيل ، أو ما بين الكميت والأشقر .

(٥) الشوى : رذال المال . النشب : المال الأصيل . جزية النشب : زكاته .

(٦) الصيب : المطر . السكب : المنسكب .

(٧) الدهناء : الفلاة . القرارة : ما قر فيه أي حصل فيه السكن لأهل الحضر المستقرين في منازلهم خلاف أهل البدو الذين لا يزالون متنقلين ، وفرق القرارة ما بين البدو والحضر ، أو ما بين التهامة والنجد

(٨) السمر : جمع أسمر الرمح . الغضنفر : الأسد . الأجم : جمع أجمة مأوى الأسد القضب : جمع قضب لشجرة تتخذ منه القسي .

حتى أتى الرَسَّ والأبصارُ شاخصة ... منّا إلى معقل مستمنع صَعِبِ [1]

لا يَجسِرُ الوهمُ أن ينوي تسنّمَهُ ... وأسُّهُ مجتَدىً مدرارةِ السُحب [2]

بُروجُه لا يضاهيها لرفعتها ... سوى النجوم من المريخ والقطب [3]

ومذ بغى أهله حلَّت بساحتهم ... صواعقٌ أرسلتها شعلة الغضب

آوَوا مَصاليتَ سَرّاقينَ دأبُهُمُ ... قطعُ الطريق بلا ذنب ولا سبب [4]

مثلُ السهام انبرتْ من تحتهم إبلُ ... مثلُ القسيّ متى يرموا بها تُصب [5]

فقال دونكمُ ذا الحصنَ فابتدرَتْ ... شوسٌ متى يدعها للحرب لم تغِب

فـانَ للحَين وقعٌ في مساكنهم ... إن يشهد الطفلُ يوماً بعضه يَشِبِ [6]

ولم تقم ساعة إلا وحاكمهم ... مكبّلٌ بين أيدي الماجد الندب [7]

قاد الجيادَ مع النسوان شائعةً ... له، فأولاه عفواً غير مرتقب

فتح تيسر في أرض الحجاز لنا ... دقّت بشارته الركبانُ في حلب

ففارق العربُ مرعاهم وماءَهُمُ ... كالحمرِ خوفَ أسود الغابة الغُلُبِ [8]

وبعد تيسير ذا الفتح المبين لنا ... بتنا وأعلامنا تهتزّ من طرب

(١) الرس: اسم موضع فيه بئر. المستمنع: المنيع.

(٢) مجتدى: بالبناء للمجهول. المدرار: الغزير الدر، يقال سماء مدرار أي تدر بالمطر، ومدرارة السحب من إضافة الصفة إلى الموصوف أي أن تلك البروج وصلت في العلو والارتفاع درجة تستجدي الرفعة من أسسها السحب المرتفعة الممطرة فكيف بقممها.

(٣) القطب: نجم بين الجدي والفرقدين.

(٤) المصاليت: جمع مصلات الشجاع.

(٥) مثل السهام: أي في السرعة. مثل القسي: أي في الانحناء وقت اشتداد العدو.

(٦) الحين: الموت. بعضه: بدل من يوماً، أي أن يشهد الطفل بعض يوم يشيب.

(١) مكبل: أي موضوع في رجله الكبل أي القيد. الندب: السريع الى الفضائل.

(٨) الغلب: بسكون اللام جمع أغلب لأسد غليظ العنق، إلا أنه يقرأ بضمتين لوزن الشعر مسامحة.

ولو نشاء ملكنا نجد أجمعها ... لكنه عندنا نورٌ على غَرب (١)

وصاح بالقوم حاديهم ألا انتبهوا ... إنّا نخاف فوات الحج والقُرَبِ

فسارت الخيلُ والركبانُ يقدمهم ... حامي الذمار على ملجم العرب (٢)

جئنا (ضريّة) يدعونا لمورده ... (مرّان) حتى نزلنا في ذرى الكثب (٣)

وحين لاح لنا أعلام مكة ضجـ ... ـج الناسُ لبيكَ في ترديد مكتئب (٤)

كأنهم نُشروا من بعد ما قُبروا ... فالكل يرفل في أثوابه القُشُبِ (٥)

ومُذ نزلنا بطون الأبطح انبعثت ... منا النفوس لطوف البيت في التعب (٦)

طاف القُدومَ وصلّى وانثنى فسعى ... حتى لقد كاد أن يجثو على الركب (٧)

والكل منا قضى فرض القديم له ... ثم انثنينا بقلب ريّض طرب (٨)

واصبحت أمراء الشام تابعة الـ ... ـبصري في زيّ من للحج متّهب (٩)

---

(١) النور : الزهر ، الغرب : شجر معروف لا يثمر

(٢) الذمار : كل ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه ملجم : هكذا في أصل النسخة والظاهر (مستلحم) بصيغة اسم الفاعل أي موقع الحرب في العداوة والحرب من استلحم الرجل نشب في الحرب .

(٣) ضرية : قرية بين البصرة ومكة . مران : قرية قرب مكة الكثب : جمع كثيب للتل من الرجل

(٤) المكتئب : ذو الكفاية :

(٥) يرفل : أي يجر ذيله ويتبختر . القشب : جمع قشيب الجديد النظيف .

(٦) الابطح : مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى والمراد به هنا أطراف مكة .

(٧) طواف القدوم : أول طواف يقوم به الحاج أول ما دخل مكة قبل الوقوف وهى تحية البيت . صلى : أي في مقام ابراهيم . سعى : أي بين الصفا والمروة . يجثو : من جثا جثواً جلس على ركبتيه خشوعاً وأدباً .

(٨) الريض : البداية أول ما تراض ، والقلب الريض المنقاد .

(٩) المراد به الأمير علي الشا ، اي أن أمراء الشام تابعوا الأمير البصري في زي الاحرام ولبسه . المتهب : من اتهب اتهاباً الهبة قبلها ، أي اتهبه الله بمعنى قبله الحج .

مرّوا على مَلكنا السامي وأعينُهم مكسورة من حيا منه ومن أدب

وبعدهم رتّب المقدامُ جحفلَهُ فجاء يملأ فجّ الأرض باللّبَبِ[1]

نلنا الوقوفين من نعماه وانصرفت بنا لأرض مِنى رقالةُ النُجبِ[2]

رمياً ونحراً وحلقاً يقتضيه لنا لبسُ النفيس من القمصان والأُتُبِ[3]

وجاء بعد ثلاث من إقامتنا أمرٌ بتقويضة الفُسطاطِ والطُنُبِ[4]

ليقدمَ البيتَ كي يقضي مناسكه فسار بالقوم أهل الزّغفِ واليَلَبِ[5]

فيا له من قدوم سرّنا ورمى الـ ـعدى بقاصمة للعظم والعصب[6]

ونوّخ الحاج في بيداء أبطحهم كدأبهم في الثرى في تلكم التُرُبِ[7]

وكان لي حاجة في الحاج جبت بها أرضاً ومن كان يبغي حاجة يَجُبِ[8]

وبان عُدوانُ عُدوانٍ وصولتُهم بالخيل والرَّجل والهندية القُضُبِ[9]

كل يريدُ انتهاب الحاج مؤتذناً من الشريف زكيّ الأصل والنسب

---

(١) اللبب : ما يشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئخار السرج ، وهو كفاية عن كثرة الخيل وركبانها .

(٢) الوقوفين : أي الوقوف بعرفة والوقوف بالمشعر الحرام . النجب : جمع نجيب الاصيل من كل شيء .

(٣) الأتب : قميص بغير كمين .

(٤) التقوضة : تفعلة من قوض البناء . الفسطاط : بيت من الشعر . الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت .

(٥) الزغف : الدرع الواسعة الطويلة . اليلب : الترسة .

(٦) القاصمة : الكاسرة .

(٧) نوخ : نزل وأقام . الترب : مكان كثير التراب .

(٨) الحاج : اسم جمع بمعنى الحجاج لجماعة مخصوصة منهم .

(٩) الهندية : السيف المنسوب الى الهند . القضب : جمع قضيب للسيف القاطع .

وكاد ينهبُ لكن ردّ روعته … نَبلي وبُندقُ حامي الحماة ابنِ أبي (1)

من بعدما كرعوا في النهب أشربهم … بنادقاً أوردتهم مورد العطب (2)

فأجفلوا فانصلْتنا في مواسطهم … مثل الصوارم لم ترهب ولم تهب (3)

تثبّتوا لحملنا فانثنوا هرَباً … وما لهم ناصر منا سوى الهرب

والقوم شاهدةٌ أنّى لعبتُ بهم … وما خشيتُ بأنّ الموتَ يلعبُ بي

فلو تراني وضربي في جموعهمُ … لقلتَ والله جُنَّ الشيخ واحَربي (4)

ظنّوا فضلّوا بما ظنوا لزعمهمُ … ان ليس في الحاج من إن يُقدموا يثبِ

حتى لقُوا ما لقوا من يُمن سيّدنا … عالي المعالي عليِّ الأسم واللقب

وحل في المصر مولانا بقصر علي … لم يُبنَ مُشبهُه في سالف الحقب (5)

كأنه قصر عدن من تزخرفه … بلازورد ومحلول من الذهب

فانثالت الخلق تدنو نحوه زُمَرا … مُواصلي السير من رأس ومن ذنب (6)

أشراف مكة تتلوها مشايخها … وسائلون وأهلُ الشعر والكتب

وجاء رضوانَ يقفوه الشريف فتى الـ … علياء ربُّ الندى والبأس والحسب

سلطانُ مكة زيدٌ (8) إبنُ مُحسنِ مَن … بجدّه في غدّ ننجو من اللهب

وما سمعنا لأهل البصرة انحدرت … ملوكُ مكةَ بالأعلام والنوب (7)

(1) الروعة : الفزعة .
(2) كرعوا : باشروا . أشربهم : جعلهم شربون كأس المنون من بنادق أوردتهم مورد الهلاك .
(3) أجفلوا : هربوا مسرعين . انصلتنا : سبقنا . الصوارم : جمع صارم السيف القاطع .
(4) واحربي : كلمة تستعمل للتأسف .
(5) المصر : المراد بها مكة . يبن : بالبناء للمجهول . الحقب : جمع حقبة المدة من الوقت .
(6) أمثال : انصب من رأس ومن ذنب : أي من الفوق والأسفل .
(7) النوب : جمع نوبة جماعة من الناس ، والمراد بها هنا الجيش ورجاله .
(8) إبن : فصلت الهمزة للضرورة .

وخيرهم إبنُ فرّوخ أتى بمنى ... ذاك الابيب الذي إن تدعه يُجب

يقبّلون أياديه وحسبهُمُ ... فخراً إذا قبّلوا منه ثرى العتب[1]

وبعد ما شرفُوا طراً بحضرته ... مضوا فاردفهم بالضمّرِ العُرُبِ[2]

والمالُ يَتْبع أنواعَ الملابس جُو ... داً عاجلاً غيرَ ممطول ولا نَكِبِ[3]

وقام سوقُ العطا للناس أجمعَ من ... بحر غزير بريح الجود مضطرب

فعمّت الناس أعلامهم وأسفلهم ... سحائب التبر من ناء ومقترب[4]

بحضرة الخضر قاس الناسُ حضرته ... بالفيض والأمن لاسكان والغُرُب[5]

لولاه قتّلت الاعجام وأنعزل الشريف وارتجّ بيت الله بالرّيب[6]

فيالها حضرة كانت لمكة والمستجمعين بها حرزاً من النُّوب

* * *

وحين لم ير وقتاً للإقامة في ... تلك البقاع ولا كسباً لمكتسب

أتى فودّع بيت الله خالقه ... ثم انثنى بفؤاد مُدنف وَصِبِ[7]

فواصل الأبطح المهجور مُؤنسُهُ ... يومين يُكرمُ من في المصر لم يُثب[8]

وبعدها رفع الأثقال حاملها ... نحو النبي الكريم السيد العربي

وبعد اربع فوق العشر نوّرنا ... نور النبي بدا من داخل القُبب

(١) الثرى : التراب . العتب : إسكفة الباب .

(٢) الضمر : جمع ضامر الهضيم البطن . العرب : جمع عربة الشديد الجري .

(٣) غير ممطول : أي دون تأخير . النكب : من نكب ينكب اذا عدل عن الشيء .

(٤) التبر : الذهب الخالص . الناء : البعيد . المقترب : القريب .

(٥) الغرب : الغريب .

(٦) الاعجام : العجم . الريب : جمع ريبة الشك والتهمة .

(٧) مدانف : من دنف المريض ثقل مرضه . الوصب : المريض .

(٨) المصر : أي مكة .

فاقبلت سائر الأعيان مُسرعةً ... تستقبل المَلْك ربَّ الجحفل اللَّجب [1]
فأُلبسوا خِلعاً يختالُ لابسها ... كأنه ثمل من ابنة العنب [2]
فزار مولاه مسروراً ومن معه ... لا زال ما عاش مسروراً بلا تعب
جُبنا مواضع لم نسمع لها خبراً ... لولاه، وقّاه ربُّ العرش من نصب
رأى الإقامة أياماً ثمانية ... بها قضينا المنى في المربع الرحب [3]
وسال وادي النّدى فيه لطالبه ... منه رأى الناس نيل القصد عن كثب [4]
ثم انصرفنا وودعنا بخدمته ... وحث نحو المغاني كل مغترب [5]
وكلُّ عُرب طرقناها غَدَت خَدَما ... لنا وعادوا هم الأضياف من سغب [6]
وظنّ جلُّ البرايا أنّ إبن أبي ... ليلٍ طوى سائر الآبار والقُلُب [7]
وجمّع العرب أعلاها وأسفلها ... لحربنا كي يموت الكل من لَغَب [8]
والرأي ضربُ مجاهيل الفلاة عسى ... ننجو بذا الأمر من ويل ومن حَرَب
وما دروا أن حرب الرّس أنبت في ... قلوب أهل الفيافي دوحة الرَهَب [9]
حتى اذا جاوزت نجداً ركائبنا ... رأوا تذلله بالرُسل والكتب
يرجو ندى ملك في العز عادته ... إن يطلب الروحَ منه سائل يُجَب

---

(١) الجحفل : الجيش . اللجب : ذو جلبة وكثرة .

(٢) الثمل : السكران ابنة العنب : كناية عن الخمر .

(٣) بها : أي بالمدينة المنورة . منى : جمع منية البغية .

(٤) فيه : أي في المربع الرحب وهو المدينة منه : أي الأمير . الكثب : القرب .

(٥) المغاني : جمع مغنى وهو المنزل .

(٦) السغب : الجوع .

(٧) ابن ابي ليل : كناية عن قطاع الطريق . القلب : جمع قليب البئر . لعل الصحيح (أبي ليلى) كنية لرجل معين ، كما يظهر من الأبيات التالية .

(٨) وجمع : عطف على طوى في البيت السابق . اللغب : التعب والاعياء الشديد .

(٩) الفيافي : جمع فيفاء المفازة لا ماء فيها .

فنال فوق الذي يرجو بذلته — ولو بغى بعضه بالبغي لم يصب [1]

ومذ وردنا حدود البصرة امتلأت — عين الفلا بالقنا والزغف واليلب

من الرباط الى المشراق يلحم بالـ — دريهمية أصناف من العجب [2]

خيل ورجل وأتفاق لها خطر — وكل أبيض ماضي الحد ذي شطب [3]

تظن أن قام يوم الحشر فابتدرت — كل الورى نحونا من باطن الترب

وغير بدع إذا انقضت مسارعة — من شرقها لعلي كاشف الحجب [4]

يا أيها الناس هذا بدركم بزغت — به الركاب اليكم غير مغترب

قد ظن اعداؤكم أنواره غربت — والشكر لله لم تغرب ولم تغب

وقد عرفتم يقيناً قدر غيبته — وعيشكم في نواه قط لم يطب

وما يقيم سواه مجدكم أبداً — وانتم القوم أهل العقل والأدب

قد ساد من قبله لكن وحقكم — شتان ما بين ركض الخيل والخبب [5]

موفق هو في كل الأمور فلا — تخالفوه بجد لا ولا لعب

أنا غريب ولكن مهجتي خلقت — منكم ، ورب السما والارض يعلم بي

من أجل ذا قلت ما قد قلت مجتهداً — وغير ذا القول لم ينـدب ولم يجب

والحمد لله رب العالمين على — سروركم بلقا مولاكم الندب

---

(١) أي ولو بغى لم يصب ببغيه بعض ما أصابه بذلته .

(٢) الرباط : اسم موضع في ضواحي البصرة . المشراق : اسم محلة من البصرة . يلحم : يلصق . الدريهمية : موضع بين البصرة والزبير ، وفيه مشهد (طلحة) والزبير (رضي الله عنهما) ، وجامع سيدنا (علي) كرم الله وجهه ، إلى أن أصنافاً كثيرة وعجيبة من الخيالة والمشاة والمسلحين بالبنادق والسيوف من أهل البصرة استقبلوا الأمير بحيث وصلت مقدمتهم إلى الدريهمية ومؤخرتهم في الرباط والمشراق .

(٣) الشطب : جمع شطبة للخط في متن السيف .

(٤) أنقضت : الى كل الورى . لعلي أي لملاقاة الأمير علي باشا .

(٥) لعل الصحيح (والخبب) وهو سير الخيل على مهل وبطء .

ثم دخلت السنة الثامنة والأربعون ونحن في خدمته في مكة المشرفة ، وسرنا منها إلى المدينة ، وقدمنا البصرة في شهر صفر من السنة المذكورة .

ثم دخلت السنة التاسعة والأربعون وفيها بنى قلعته المعروفة (بالعلية) وكانت تسمى سابقاً بـ (بالقرنة) بضم القاف وسكون الراء المهملة وفتح النون وبعدها هاء معناه الزاوية التي يحيط بها خطان أوسطحان أو جسمان ، ولما كانت هذه القلعة واقعة في ملتقى الدجلتين أعني دجلة والفرات . سميت بذلك ونقل اسمها إلى النسبة إلى اسمه سلّمه الله تعالى ، وفيها ورد الخبر بموت (حسن آغا) حاكم العرجاء فركب في طريق البحر وأمّر على الخيل مملوكه (جوهر آغا) فنزل بهم العفـارة وكان أميرها يومئذ (شهاب بك بن أحمد چلبي) فأقام لهم الميرة والطعام وما يحتاج اليه سائر العسكر ودوابهم فوصل الباشا اليهم يوم عيد الفطر وأقام أياماً وارتحل ونزل على العرجاء ، وأمر المتجندة والمقاتلة بمحاصرتها ، فانحصرت الفئة التي فيها ، وأميرهم يومئذ (بدر بن موحى) أحد المنتسبين إلى حسن آغا فلما علم إنْ ليس له طاقة بالمقاومة أرسل إلى حاكم بغداد وهو يومئذ (درويش محمد باشا) فأرسل اليه بعض خواصه يستعفيه عن بدر ومن معه فأجابه لذلك ورحل عنهم بعد أن أشرف الهلاك عليهم .

ثم دخلت السنة الخمسون وفيها حج الأمير السعيد (حسين بك) ولد الباشا مد ظلّه ، وحصل للناس منه إحسان وإنعام حسب ما اقتضاه الوقت .

ثم دخلت السنة الحادية والخمسون ولم يصدر في هذه السنة شيء من باب ما نحن بصدد إيراده في هذا الكتاب .

ثم دخلت السنة الثانية والخمسون ، وفيها كانت الوليمة العظيمة التي ثلّثت وليمتي الاسلام ، فانه قال أرباب التواريخ : وليمتان كانتا في الاسلام لم يُرَ مثلهما ، وليمة الرشيد حين بنائه بزبيدة بنت جعفر ووليمة حسن بن سهل حين بناء المأمون بابنته (بوران) وكانت وليمته — سلمه الله — لختان الولد الرشيد ((محمد بك بن الأمير السعيد حسين بك) ، فانه

(١) أي إلى علي الباشا .

جمع فيها أصناف المطربين ، وأرباب الألحان والمضحكين ، واستمرت أربعين يوما يطبخ في كل يوم ما يكفي ألوفا من الناس ، وكذا في كل ليلة ، وتشعل من الشموع والسرج والمشاعل والقناديل ما انقلب به الليل نهاراً والظلام بأسره ضياءً ، وترى الأرض كالسماء من زاهر القناديل أو المشاعل أو كالروض تفتحت أزهاره غب الغمام الهاطل ، فلما تم أمر الختان أفاض على العسكر أضعاف الخلع على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت مراتبهم ، وقلتُ فيه تأريخاً :

قد عم مولانا بنعمته ذا الناسَ من قاص ومن داني
فسألت عن تأريخه خلدي فأجابني (هو حاتم الثاني)

ثم دخلت السنة الثالثة والخمسون واستمر فيها الأمان ، ومساعدة الزمان ، الى وقت تحريرنا هذا المؤلف أعني السنة الثامنة والخمسين ، وكان السبب الأعظم في ارتباط هذه الأمنية ما رآه سلمه الله من الرأي في ولده السعيد حسين بك من تفويض الأمور اليه ، والتعويل في كلياتها وجزئياتها عليه ، فانه نصبه لهذا المنصب في شهر شعبان من السنة الخامسة والخمسين ، فقام بضبط الأمور ، وتدبير حوائج الجمهور ، قيام مضطلع بالمهام الجليلة ، مجرب لكثير الدهر وقليله ، فلا زالا حصناً منيعاً ، ما كرّ الجديدان ، وتعاقب الملوان .

وليعلم الواقف على ما ذكرناه من هذه الوقائع إنا لم نورد تفصيلا بالمذكور وإنما عمدنا إلى ذكر مجمل من المشهور ، وأضربنا عن أحوال كثيرة ، ووقايع غزيرة ، لا يحتملها هذا المختصر عمداً لا سهواً إتكالاً منا على ما نويناه من تأليف تأريخ مستقل للإمارة الافراسيابية مفصل على فصول : أولها في ذكر ارتحالهم من ديار ربيعة المسماة (آمد) و (ديار بكر) الى البصرة . ثانيها : في مبدأ ظهور أفراسياب باشا وانتشار أمره ، وبلوغه درجات المجد إلى انتهاء عمره ، وثالثها : في ذكر مولانا دام عزه مبوباً على أبواب : الأول : في شمائله

وخمائله وذكر ما يناسبها من حكايات الملوك وأشعار الشعراء . الثاني : في ذكر وقائعه وما يشاكلها . الثالث : في ذكر سماحته وعطاياه وجوده ونداه ، الرابع : في بيان ما شاهدته وسمعته من إكراماته وشمقته التي اشتهرت في الآفاق ، بين أهل الخلاف والوفاق ، الخامس: في ذكر أشعاره العربية والبحث عنها وعـ معانيها وإيراد ما يناسبها . السادس : في ذكر أشعاره الفارسية والتركية وما يضاهيها ، السابع : في إيراد تصانيفـه الموسيقية ومعمياته وتواريخه وحكاياتها وسبب وقوعها وشأن نزولها . والله المسئول إتمام المراد ، إنه هو السميع الجواد .

هذا آخر ما كتبه المؤرخ عبد علي بن ناصر الشهير بابن رحمة الحويزي في تأريخ الإمارة الافراسيابية وأميرها علي باشا بن افراسياب باشـا ، وذلك في كتابه المخطوط : (السـيرة المرضية) . ولنا وطيد الأمل بأن تلقى هذه الوريقات أضواءاً كشافة على فترة مظلمة من تأريخ البصرة ورجالها المسؤولين ، وأن تكون حلقة كانت مفقودة من حلقات تأريخ هذا الجزء العزيز من عراقنا المحبوب ، وأن يفتح الباري (عز وجل) لنا في كل يوم آفاقاً مجهولة . إنه على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير .



